

اللغة العربية كائن حي



جورجي زيدان

ياقوت
متعة القراءة



اللغة العربية كائن حي

تأليف: جورجى زيدان

كتاب "اللغة العربية كائن حي" هو كتاب لمؤلفه جورجى زيدان يعدّ اضافة خاصة للعربية في نظرته العامة للفلسفة اللغوية؛ فيتحدث فيه عن مراحل تطوّر وتنوع معاني ومدلولات ألفاظ العربية و توظيفاتها عبر العصور. اضافة لاختلاف تراكيبها وأساليبها. كما يتحدّث أيضا عن الدخيل منها في كلّ مرحلة تاريخية.

مقدمة

هذا كتاب صغير في بحث جديد، تنبّهنا له ونحن ننشر الطبعة الثانية من كتابنا الفلسفة اللغوية لأنّ موضوعه تابع لموضوعنا. أو هي خطوة ثانية في تاريخ اللغة باعتبار منشأها وتكونها ونموها. بفلسفة اللغوية تبحث في كيف نطق الانسان الأول، وكيف نشأت اللغة وتولّدت الألفاظ من حكاية الأصوات الخارجية، كقصف الرعد، وهبوب الرياح، والقطع والكسر، وحكاية التف والنفخ والصفير ونحوها.. ومن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزيا كالتأوه، والزفير. وكيف تنوّعت تلك الأصوات لفظا ومعنى بالانحط، والابدال، والقلب، حتى صارت ألفاظا مستقلة وتكوّنت الأفعال، والأسماء، والحروف وصارت اللغة على نحو ما هي عليه.

وأما تاريخ اللغة فيتناول النظر في ألفاظها وتراكيبها، بعد تمام تكونها، فيبحث فيما طرأ عليهما من التغيير والتجدد أو الدثور، فيبين الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال، وما قام مقامها من الألفاظ الجديدة، والتراكيب الجديدة، بما تولّد فيها، أو اقتبسته من سواها، مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم وتولد الجديد، وأمثلة مما دثر، أو أهمل، أو تولّد، أو دخل. وهو بحث لغوي تاريخي فلسفي قسّمنا الكلام فيه الى ثمانية فصول، باعتبار الأدوار التي مرّت على اللغة وهي:

1. العصر الجاهلي: ويتناول تاريخ اللغة من أقدم أزمانها الى ظهور الاسلام.. وأوردنا فيه أمثلة مما دخلها من الألفاظ الأعجمية من اللغات الحبشية، والسانسكريتية، والهيروغليفية، واليونانية، وغيرها، وأسندنا ذلك الى أسباب تاريخية. وذكرنا القاعدة في تعيين أصول تلك الألفاظ، وأمثلة مما تولّد في اللغة نفسها من الألفاظ الجديدة، وأيدنا ذلك بمقابلة العربية بأخواتها، أو بالنظر الى ألفاظها بحدّ ذاتها .
2. العصر الإسلامي: ونريد به ما حدث في اللغة بعد الإسلام من الألفاظ الاسلامية مما اقتضاه الشرع، والفقه، والعلوم اللغوية، ونحوها .
3. الألفاظ الادارية في الدولة العربية: وتشمل ما دخل اللغة العربية من الالفاظ الادارية التي اقتضاها التمدن الاسلامي عند انشاء دولة العرب.. وهي إما دخيلة وإما مؤدّة. ويتخلّل ذلك بحث في كيفية انتقال اللفظ من معنى الى آخر .
4. الألفاظ العلمية في الدولة العربية: ويدخل فيها الألفاظ والتراكيب التي اقتضاها نقل العلم والفلسفة من اليونانية وغيرها الى اللغة العربية في العصر العباسي .
5. الألفاظ العامة في الدولة العربية: وهي الألفاظ التي تولّدت في اللغة، أو دخلتها بغير طريق الشرع، أو العلم، كالألفاظ الاجتماعية ونحوها .
6. الألفاظ النصرانية واليهودية: وهي ما دخل اللغة العربية من الألفاظ، والتراكيب السريانية، أو العبرانية بنقل الكتب النصرانية الى العربية .
7. الألفاظ الدخيلة في الدول الأعجمية: وتتناول ما اكتسبته اللغة من الألفاظ الأعجمية بعد زوال الدول العربية، وتولي الدول التركية والكردية وغيرها .
8. النهضة الحديثة: وفيها ما اقتضاه التمدن الحديث من تولّد الألفاظ الجديدة. واقتباس الألفاظ الإفرنجية للتعبير عما حدث من

المعاني الجديدة في العلم، والصناعة، والتجارة، والإدارة وغيرها .

وصدّرنا الكتاب بتمهيد في نواميس الحياة وخضوع اللغة لها، وختمناه بفضل في لغة الدواوين، وخلاصة في مجمل ما تقدّم. على أننا نعد ما كتبناه في هذا الموضوع الجديد خواطر سائحة، فتحنا بها باب البحث لأئمة الإنشاء، وعلماء اللغة. فنقدّم اليهم أن يوفوا الموضوع حقّه، أو يزيدونا منه لأنه يحتاج إلى بحث كثير، ودرس طويل. وقد أصبحت اللغة بعد هذه النهضة في العلم، والأدب، والشعر، في غاية الإفتقار إليه. ليعلم حملة الأقلام أن اللغة كائن حي نام خاضع لناموس الإرتقاء، وتتجدّد ألفاظها، وتراكيبها على الدوام.. فلا يتهيّبون من استخدام لفظ جديد لم يستخدمه العرب له. وقد يكون تهيّبهم مانعا من استثمار قرائحهم، وربما ترتّب على إطلاق سراح أقلامهم فوائد عظيمة تعود على آداب اللغة العربية بالخير الجزيل. ولا بد من اعتبار القواعد العامة، والروابط الأساسية، مما أشرنا إليه في محلّه.. ناهيك بما ينجم عن معرفة أصل الكلمة وتاريخها من تفهم معناها الحقيقي.

تمهيد

نواميس الحياة

من أهم نواميس الحياة: النمو، أو التجدّد، وهو ينطوي على دثور الأنسجة وتولّد ما يحلّ محلّها.. ومعنى ذلك أن الجسم الحيّ مؤلّف من خلايا لكلّ منها حياة مستقلة، اذا انقضت ماتت الخلية وانحلّت أجزاؤها وانصرفت، وتولّدت في مكانها خلية جديدة تتكوّن من العصارات الغذائية، كالدّم ونحوه.. فالجسم الحيّ في انحلال وتولّد دائمين. حتى قالوا: أن جسم الإنسان يتجدّد كله في بضع سنين، أي لا يبقى فيه شيء من المواد التي كان يتألّف منها قبلا. وبغير هذا التجديد لا يكون الجسم حيّا. واذا حدث في جسم الحيوان ما يمنع من تجدد الأنسجة أسرع إليه الفناء.. فالتجدّد ضروري للحياة.

وحياة الأمة مثل حياة الفرد، بل هي ظاهرة فيها أكثر من ظهورها فيه. لأن الأمة إنما تحيا بدثور القديم، وتولّد الجديد.. فكان أفراد الأمة خلایا يتألّف منها بدن تلك الأمة، وهو يتجدّد في قرن كما يتجدّد جسم الإنسان في عقد من عقود تلك القرون. وإذا تتبّعنا نمو الأمة بتوالي الأجيال، رأيناها تتفرّع وتتشعب.. فتصير الأمة الواحدة أمما يتفاوت البعد بينها بتفاوت الأزمان والاحوال. وكلّ أمة من هذه تتشعب بتوالي الدهور إلى أمم وهكذا إلى غير حدّ.. وهو ما يعبرون عنه بناموس الإرتقاء العام.

اللغة كائن حي

وينبع الأحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قبيل ظواهر الحياة أو توابعها، وخاصة ما يتعلّق منها بأعمال العقل في الإنسان، كاللغة والعادات، والديانات، والشرائع، والعلوم، والآداب، ونحوها.. فهذه تعدّ من ظواهر حياة الأمة، وهي خاضعة لناموس النمو والتجدّد ولناموس الإرتقاء العام. ولكلّ من هذه الظواهر تاريخ فلسفيّ طويل، نعبّر عنه بتاريخ تمدّن الأمة، أو تاريخ آدابها، أو علومها، أو حكوماتها، أو دياناتها، أو نحو ذلك. وهي أبحاث شائقة، فيها فلسفة نظر.. ومن هذا القبيل تاريخ اللغة وآدابها.

والبحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول:

أولا:

النظر في نشأتها منذ تكونها مع ما مرّ عليها من الأحوال قبل زمن التاريخ، كتكوّن الافعال، والأسماء، والحروف، وتولد صيغ الإشتقاق وأساليب التعبير ونحو ذلك، والبحث في هذا كلّ من شأن الفلسفة اللغوية، وقد فصلناه في كتابنا الفلسفة اللغوية.

ثانيا:

النظر فيما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى، فاكتمت من لغاتهم ألفاظا وتعابير جديدة، كما اقتبس أهلها من عادات تلك الأمم، وأخلاقهم، وآدابهم، وما يرافق ذلك من تنوع معاني الألفاظ بتنوع الأحوال مع حدوث صيغ جديدة، والفاظ جديدة.

ثالثا:

النظر في تاريخ ما حوته اللغة من العلوم، والآداب، باختلاف العصور وهو تاريخ آداب اللغة. وهذا التقسيم تقريبي، إذ لا تجد حدا

فاصلا بين الأقسام.

وإذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من ظواهر الأمة، كالآداب، أو اللغة، أو الشرائع، أو غيرها، باعتبار ما مرّ بها من الأحوال في أثناء نموّها، وارتقائها، وتفرّعها، رأيته تسير في نموّها سيرا خفيا لا يشعر به المرء إلا بعد انقضاء الزمن الطويل. ويتخلل ذلك السير البطيء وثبات قويّة تأتي دفعة واحدة، فتغيّر الشؤون تغييرا ظاهرا.. وهو ما يعبرون عنه بالنهضة، وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الأفكار بالإختلاط بين الأمم على أثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف، أو يكون سبب الإختلاط ظهور نبيّ، أو مشرّع، أو فيلسوف كبير، أو نبوغ قائد طموح يحمل الناس على الفتح أو الغزو، أو مثال ذلك من أسباب الإختلاط.. فتتحاكّ الأفكار، وتنمّزج الطباع، فتتنوّع العادات، والأخلاق، والأديان، والآداب، واللغة تابعة لكلّ ذلك.. بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير، فتحفظ بها قرونا بعد زوال تلك العادات، أو الآداب، أو الشرائع، وإذا تبدّل شيء منها حفظت آثار تبدّله.

وسنقتصر في هذا البحث على تاريخ اللغة العربية في دورها الثاني، وهو تاريخ ألفاظها وتراكيبها بعد تكوّنها.

أدوار تاريخ اللغة

باعتبار ما طرأ من التغيير على ألفاظها وتراكيبها بعد تكوّنها وارتقائها

إذا تدبّرنا ما مرّ على اللغة العربية من المؤثرات الخارجية بعد تكوّنها وارتقائها حتى اكتسبت ما اكتسبته من الألفاظ وضروب التغيير، رأيناها قد مرّت في ثمانية أدوار، أو عصور هي:

1. العصر الجاهلي: وفيه ما لحق اللغة من التّنوع والتغيير في ألفاظها وتراكيبها قبل الإسلام .
2. العصر الإسلامي: أي أثر الإسلام في ألفاظ اللغة وتراكيبها .
3. الألفاظ الإدارية في الدولة العربية .
4. الألفاظ العلمية في الدولة العربية .
5. الألفاظ الإجتماعية ونحوها .
6. الألفاظ النصرانية .
7. الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم .
8. النهضة الحديثة .

العصر الجاهلي

ويراد به الزمن الذي مرّ على اللغة العربية قبل الإسلام، ولا يمكن تعيين أوله لضياح ذلك في ثنّيات الدهور التي مرّت قبل زمن التاريخ.. ولكننا نعتقد أن اللغة العربية نشأت ونمت، أي تميّزت فيها الأسماء، والأفعال، والحروف، وتكوّنت فيها معظم الاشتقاقات، والمزيدات، وهي لا تزال في حجر أمها، أي قبل انفصالها عن أخواتها الكلدانية، والعبرانية، والفنيقية، وغيرها من اللغات السامية. وبعبارة أخرى أن أم اللغات، ويسمونها اللغة السامية أو الآرامية تم نموّها، فتكوّنت أفعالها، وأسمائها، وحروفها، واشتقاقاتها، ومزيداتها قبل أن تشتت أهلها، أو نزحوا إلى فينيقية، وجزيرة العرب، وما بين النهرين، حيث اختلفت لغة كل قوم منهم بعد ذلك النزوح، باختلاف أحوالهم.. فتولّدت منها اللغات السامية المعروفة. فالساميون الذين نزلوا جزيرة العرب، تنوّعت لغتهم تنوّعا يناسب ما يحيط بهم من الأحوال، أو يجاورهم من الأمم.. فتميّزت عن أخواتها بأمور خاصة، هي خصائص اللغة العربية. وتشعّبت هذه اللغة في أثناء ذلك إلى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الأصقاع، وهي لغات الحجاز، واليمن، والحبشة. وتفرّعت لغة كل من تلك البقاع إلى فروع، باعتبار القبائل والبطون مما لا يمكن حصره.. كلّ ذلك حدث قبل زمن التاريخ.

ويكفي في هذا المقام البحث في لغة الحجاز وحدها، وهي اللغة العربية التي وصلت إليها، لقد كانت قبل تدوينها - أي قبل الإسلام - لغات عديدة تعرف بلغات القبائل، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب، كلغات تميم، وربيعة، ومضر، وقيس، وهذيل، وقضاعة، وغيرها. كما هو مشهور. وأقرب هذه اللغات شبيها باللغة السامية الأصلية أبعدا عن الإختلاط، وبالعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام، وخاصة أهل مكة، وبالأخص قريش، فقد كانوا أهل تجارة وسفر شمالا إلى الشام، والعراق، ومصر، وجنوبا إلى بلاد اليمن، وشرقا إلى خليج فارس وما وراءه، وغربا إلى بلاد الحبشة. فضلا عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم

المختلفة، وفيهم الهنود، والفرس، والأنباط، واليمنية، والأحباش، والمصريون، عدا الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى، فدعا ذلك كله الى ارتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الإشتقاقات، والتراكيب، مما لا مثيل له في اللغات الأخرى.

وزاد ذلك الاقتباس خاصة على أثر النهضة التي حدثت في القرنين الأول، والثاني، قبل الإسلام، بنزول الحبشة والفرس في اليمن، والحجاز، على اثر استبداد ذي نواس ملك اليمن.. وكان يهوديا فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد، وخاصة أهل نجران، فطلب اليهم اعتناق اليهودية.. فلما أبوا قتلهم حرقا وذبحا، فاستنجد بعضهم بالحبشة.. فحمل الأحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً، وأذلوا ملوكها اعواماً. ثم أنف أحد ملوكها ذو يزن، فاستنجد بالفرس على عهد كسرى أنوشروان، لأنجده طمعا في الفتح.. فأخرج الأحباش من اليمن بعد أن ملكوها 72 عاماً، وكانوا في أثناء ذلك يترددون الى الحجاز، وحاولوا فتحه في أواسط القرن السادس، فجاءوا مكة بأفياهم، ورجالهم ولم يفلحوا. واهتم أهل الحجاز بقدوم الحبشة الى مكة حتى أرخوا منه وهو عام الفيل. ولما فتح الفرس اليمن، أقاموا فيها واختلطوا بأهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا، وكانوا يقدمون الى الحجاز وأهل الحجاز يترددون اليهم.

الألفاظ الأعجمية

فكان لهذه النهضة تأثير كبير في اللغة العربية، فتكاثرت ألفاظها ومشتقاتها، فلما جمعوا اللغة بلغت صيغ أبنية الأسماء فقط بضع مئات، ثم صارت بعد ذلك ببضعة قرون ألف ومائتين وعشرة أمثلة (1210).. ناهيك بما دخلها من الألفاظ الغريبة وما اقتبسها من التراكيب الأجنبية، ولكن أكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز أصله.. على أننا نستدل على تكاثر الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو أخواتها من امثال تلك الألفاظ.. فإذا رأينا لفظاً في العربية لم نر له شبيهاً في العبرانية، أو الكلدانية، أو الحبشية، ترجح عندنا انه دخيل فيها. وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير، أو الأدوات، أو المصنوعات، أو المعادن، أو نحوها، مما يحمل إلى بلاد العرب من بلاد فارس، أو الروم، أو الهند، أو غيرها.. ولم يكن للعرب معرفة به من قبل، أو في أسماء بعض المصطلحات الدينية، أو الأدبية، وأكثر ذلك منقول عن العبرانيين أو الحبشية، لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب.

ويقال بالإجمال أن العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها، ولذلك رأينا أئمة اللغة اذا أشكل عليهم أصل بعض الألفاظ الأعجمية عدّوها فارسية، ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب المزهرة من الألفاظ الفارسية: الكوز، الابرقي، الطشت، الخوان، الطبق، القصعة، السكرجة، السنور، السنجاب، الفاقم، الفلك، الدلق، الخز، الديباج، التاخنج، السندس، الياقوت، الفيروزج، البللور، الكعك، الدرهم، الجردق، السميد، السكاج، الزبرياج، الاسفيذاج، الطياهيج، الفالوذج، اللوزينج، الجوزينج، البغرينج، الجلاب، السكجنين، الخلنجين، الدارصيني، الففل، الكراويا، الزنجبيل، الخولجان، القرفة، النرجس، البنفسج، النسرين، الخيري، السوسن، المزنجوش، الياسمين، الجلنار، المسك، العنبر، الكافور، الصندل، القرنفل. وعندنا أن بعض هذه الألفاظ غير فارسي كما ستري.

ومما اقتبسوه من اليونانية واللاتينية: الفردوس، القسطاس، والبطاقة، والقرسطون، والقبان، والاصطرلاب، والقسطل، والقنطار، والبطريق، والترباق، والقنطرة، وغيرها أكثر. وأما ما نقلوه عن الحبشية، فأكثره لا يدل على أصله لتغير شكله، ولأن الحبشية والعربية أختان تتشابه الألفاظ فيهما. والمشهور عند علماء العربية من الألفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة: كفلين، والمشكاة، والهرج.. لكننا لا نشك في أنهم اقتبسوا كثيراً غيرها، وخاصة ما يتعلق منها بالإصطلاحات الدينية. من ذلك قولهم "المنبر" وهو عند العرب "مكان مرتفع في الجامع أو الكنيسة يقف فيه الخطيب أو الواعظ" وقد شقه صاحب القاموس من "نبر" أي ارتفع وفي ذلك الأشتقاق تكلف. وعندنا أن معرب "ومبر" في الحبشية أي كرسي أو مجلس أو عرش. ومن هذا القبيل لفظ "النفاق" وهو عند العرب "ستر الكفر في القلب واطهار الايمان" وقد شقوه من "نفق" راج أو رغب فيه، وليس بين المعنيين تناسب، واضطروا لتعليله الى استعارة خروج البربوع من نافقائه فقالوا: "ومنه اشتقاق المنافق في الدين" وهو تكلف نحن في غنى عنه اذا عرفنا أن "نفق" في الحبشية معناها الهرطقة، أو البدعة، أو الضلال في الدين. وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشية بدخول النصرانية فيها. وكذلك لفظ "الحواري" شقه صاحب القاموس من "حار" بمعنى البياض، وقال في معنى الحواري أنه سُمي بذلك لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم أو لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض، والأظهر أن هذه اللفظة معرب "حواري" في الحبشية، ومعناها فيها "الرسول" وهو المعنى المراد بها في العربية تماماً. وكذلك "برهان" وقد شقها صاحب القاموس من "برهن" وشقها غيره من "بره" بمعنى القطع وأن النون زائدة فيها، وهي في الحبشية "برهان" أي النور، والايضاح، مشتقة من "بره" عندهم أي اتضح أو أنار. وقس على ذلك أمثاله، كالمصحف، فإنه حبشي من "صحف" أي كتب، والمصحف الكتاب. ناهيك بأسماء الحيوانات، أو النباتات، أو نحوها. فإن "عنيسة" من أسماء الأسد عند العرب، وهي اسم الأسد بالحبشية.

وقد أخذوا عن العبرانية كثيراً من الألفاظ الدينية: كالحج، والكاهن، والعاشوراء، وغيرها، وأكثرها نقل الى الصيغ العربية لتقارب اللفظ

والمعنى في اللغتين لأنهما شقيقتان، ويضيق هذا المقام عن ايراد الأمثلة.

ولا ريب أن العرب اقتبسوا كثيرا من الألفاظ السنسكريتية ممن كان يخاطهم من الهنود في أثناء السفر للتجارة، أو الحج، لأن جزيرة العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب.. فكل تجارات الهند المحمولة الى مصر، أو الشام، أو المغرب، كانت تمر ببلاد العرب، ويكون للعرب في حملها أو ترويجها شأن. وقد عثرنا في السنسكريتية على ألفاظ تشبه ألفاظا عربية، تغلب أن تكون سنسكريتية الأصل لخلو أخوات العربية من أمثالها كقولهم "صبح" و "بهاء" فإنهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تماما، ويدلان على الاشراف أو الاضاءة. ولا يُعَلَّ أنهما مأخوذان عن العربية لأن السنسكريتية دُونت قبل العربية بزمن مديد. ونظن لفظ "سفينة" سنسكريتي الأصل أيضا، وكذلك "ضياء".. ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من أمثال ذلك. على أننا نرجح أن الهنود أخذوا عن الهنود كثيرا من المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها، وأسماء الحجارة الكريمة، والعقاقير، والطيب مما يُحمل من بلاد الهند.. والعرب يعدونها عربية، أو يُلقونها بالألفاظ الفارسية تساهلا: كالمسك مثلا، فقد رأيت صاحب المزهر يعدّه فارسيا، وهكذا يقول صاحب القاموس. وهو في الحقيقة سنسكريتي، ولفظه فيها "مشكا" وذكروا "الكافور" بين الألفاظ الفارسية وهو هنديّ على لغة أهل ملقا ولفظه عندهم "كابور". وقد ذكروا أيضا أنّ "القرنفل" فارسيّ، والغالب عندنا أنه سنسكريتي لأن أصله من الهند وقس عليه.

القاعدة في تعيين اصول الالفاظ الاعجمية

وتعيين اصل اللفظ لإحاطه باللغة المأخوذ منها ما يُحتاج الى نظر لا يكفي فيه المشابهة اللفظية، إذ كثيرا ما تتفق كلمتان من لغتين في لفظ واحد ومعنى واحد ولا تكون بينهما علاقة، وانما يقع ذلك على سبيل النواذر بالاتفاق.. الا اذا دلت القرائن على انتقال احدهما من لغة الى اخرى وساعد الاشتقاق على ذلك.

فإذا اتفق لفظان متقاربان لفظا ومعنى في لغتين، وكان بين أهل تينك اللغتين علاقات متبادلة من تجارة، أو صناعة، أو سياسة، فاز لنا الظن أن احدهما اقتبست من الاخرى.. فإذا كان اللفظ من أسماء المحاصيل، أو المصنوعات، أو الأدوات، فیرجح لاحقه باللغة السابقة الى ذلك، كلفظ "المسك" مثلا فإنه موجود في العربية وفي الفارسية وفي السنسكريتية وفروعها.. فإذا عرفنا أن المسك يحمل الى العالم من تونكين، وتيب، ونيبال، والصين، وان الهنود القدماء كانوا يحملون الطيب الى الامم القديمة ويمرّون بسفنه ببلاد العرب، ترجح عندنا أن العرب أخذوا هذه اللفظة عن الهنود، كما أخذوا الفرس منهم، أو لعلها انتقلت الى الفارسية من العربية.. لأن الفرس يعدونها عربية، كما يعدّها العرب فارسية.. او هي في الفارسية باعتبار انها فرع من السنسكريتية كما هي في الانجليزية بطريق التفرّع، وكما هي في اللاتينية لأنها أخت السنسكريتية، ومن اللاتينية انتقلت الى الفرنسية لانها فرع من اللاتينية. ويقال نحو ذلك في "كافور" فإن العرب يعدونها فارسية، والفرس يقولون أنها عربية.. وهي موجودة أيضا في السنسكريتية، واللاتينية، وفروعهما.. فبأيها نلحقها؟ في مثل لهذه الحال، يجب البحث في مصدر الكافور.. فإذا علمنا أنه يصدر من اليابان والصين ومن ملقا، وأن اسمه باللغة الملقية "كابور" ترجح عندنا أنه ملقي الأصل، وكذلك "زنجبيل" -الجزور المعروفة- فان العرب يقولون انها تعريب "شنكبل" الفارسية، والفرس يقولون أنها عربية.. ولم نجد "شنكبل" في القاموس الفارسي. واذا بحثنا عن اسم هذا العقار في اللغات الأخرى، رأينا أن اسمه في اليونانية "زنجباريس" وفي اللاتينية "زنجبار" فأول ما يتبادر الى الذهن انه من "زنجبار" البلد المعروف، وأنه سُمّي بذلك لأنه كان يُحمل منه أو لسبب آخر.. فإذا رجعنا الى منبت هذا العقار، رأينا هندية.. ورأينا اسمه في السنسكريتية "زنجابيرا" مشتقة من "كرينجا" أو "زرينجا" أي القرن، لمشابهة جذوره به.. فيتّرجح عندنا أنه سنسكريتي الأصل. ومن هذا القبيل "فلل" فإن العرب يقولون أنه فارسي، والفرس تقول أنه عربي.. وهو موجود أيضا بمثل هذ اللفظ في الانجليزية، والألمانية، واللاتينية، ويوجد أيضا في السنسكريتية، ويُلفظ فيها "بالا" أو "فيفالا" ولما كان الفلفل من محاصيل الهند، وأجوده يرد من مالابار، نرجح أن هذه اللفظة سنسكريتية الأصل.. ومعنى "ببالا" عندهم أيضا "التينة المقدسة".

فيقال عكس ذلك في الألفاظ الدالة على محاصيل بلاد العرب أو حيواناتها: كالقهوة مثلا.. لإنها موجودة في الفارسية وفي كل لغات أوربا، فالارجح أنها عربية الاصل لأن هذه اللفظة كانت عند العرب قبل اصطناع القهوة اسما من أسماء الخمر.. فأطلقوها على قهوة البن. ومثل ذلك أسماء الجمل، والزرافة، والغزال، وغيرها من أسماء الحيوانات العربية.. وربما كان بعضها مأخوذا في الأصل من لغة غير عربية.

واذا كانت اللفظة المشتركة بين لغتين من قبيل المصنوعات، فإلحاقها بأصحاب تلك الصناعة من الأمتين أولى.. فقد اختلط العرب بالفرس وخاصة بعد الإسلام، وأخذوا منهم كثيرا من الملابس والانسجة، ولم ينقلوها الى لسانهم.. بل عربوها وأبقوها على ما هي، كالسروال، والقباء (ومنها الجبة) والتبان، والجورب، والديباج، والأرجوان، والسرموج، والقطن، والطربوش، والبابو.. كما فعل أهل

هذا العصر بأسماء الملابس الأفرنجية التي اقتبسوها من الافرنج في تمدنهم الأخير، كالبنطلون، والجاكت، والستيك، وغيرها..

واقْتَبَسَ العرب من الفرس كثيرا من ألوان الأطعمة، وأنواع الأسلحة والفرش والأدوات، وأبقوها على لفظها الأعجمي.. وهي كثيرة، يضيق هذا المقام عن ذكرها، ومنها الجلاب، والجلنار، والبنفسج، والخشاف، والخودة، والدسكرة، والدولاب، والدهقان، والسرجين، والسرداب، والطنبور، والفرسخ، وغيرها كثير.. فإلحاقها بلغاتها الأصلية، يسوغه أولا التاريخ لأنه يدلنا على أن العرب اقتبسوا تلك المواد من الفرس، فإذا تأيّد ذلك بالإشتقاق اللغوي، كان الدليل أثبت.. مثل "جلاب" فإنها مؤلفة في الأصل الفارسي من "كل آب" أي ماء الزهر. و"خشاف" من "خوش آب" و"سرداب" من "سرد آب" أو "سردابه" بيت الثلج من "سرد" أي بارد و"آب" ماء والطربوش من "سربوش" أي غطاء الرأس. والبابوج من "بابوش" أي غطاء القدم. وكثيرا ما يكفي الاشتقاق اللغوي وحده في معرفة أصل اللفظة، بشرط ملاحظة مقابلة اللغات.. فإذا وجدنا لفظة في العربية، ومثلها في الفارسية أو اللاتينية، أو اليونانية مثلا، ولم يساعدنا التاريخ على معرفة حقيقة أصلها، وعمدنا الى اشتقاقها وصيغتها، فإذا لم يكن لها مجانس في أخوات العربية، وكان لها ذلك في أخوات الفارسية أو اللاتينية أو اليونانية، نرجّح أنها من إحدى هذه اللغات مثل "البلاط" بمعنى "قصر الملك" فقد عدها العرب عربية، وشقوها من البلاط المعروف لأن القصور تفرش به. ولكن هذه اللفظة اللاتينية Palaffum ومعناها قصر الملك. فادّعى مدّع أنها عربية الأصل. وأن الرومان اقتبسوها من العرب. قلنا أن الرومان يرجعون بأصلها إلى تل كان في رومية بهذا الاسم، نزل عليه أو غسّطس قيصر وأقام فيه، فسُمي قصره به.. وإذا أعجزنا الدليل التاريخي، عمدنا الى الاشتقاق.. فإن Pala في السنسكريتية معناها الحامي أو المدافع، وكان الملوك القدماء إنما يبنون القصور للتحصّن بها.

وقد لا يهديننا التاريخ مطلقا في لفظ "جاموس" فإن التاريخ لا يساعدنا على معرفة أصلها. هل هي عربية أو فارسية. فإذا رجعنا الى الاشتقاق لم نر لها اشتقاقا في العربية. أما في الفارسية فإنها مركّبة من لفظين "كاو" ثور أو بقرة و"ميش" كبش. ولكن الجاموس هندي الأصل.. ومعنى "جاوميشا" في السنسكريتية "البقرة الكاذبة".

وبالجملة فقد دخل العربية ألفاظ كثيرة من معظم اللغات التي كانت شائعة في التاريخ القديم، ممن خالط العرب كالمصريين القدماء، والحثيين، والفينيقيين، والكلدان، والهنود، والفرس.. حتى الزوج والنوبة وغيرهم مما لم يعد تمييز أصله ممكنا لتقدم عهده واختلاف شكله. ومن أمثلة ما أخذوه عن اللغة المصرية القديمة الهيروغليفيّة لفظ "قبس" بمعنى الشعلة، فهي في الهيروغليفيّة "خبش" ومعناها مصباح. وبعض تلك الاقتباسات أخذها العرب رأسا عن أصحابها، والبعض الآخر حملت اليهم على يد الأمم الأخرى، كما نقل لهم اليهود لفظ "نبي" من اللغة المصرية القديمة "الهيروغليفيّة" وأصل معناها فيها "رئيس العائلة" أو "رب المنزل". وكما نقل لهم الفرس "شترنج" عن اللغة الهندية السنسكريتية، فحسبها العرب فارسية.. وقالوا انها تعريب "شتررنك" بالفارسية، ومعناها ستة ألوان ولعلهم يريدون "تشرنك" - والصواب انها لعبة هندية قديمة. كانت تسمى في اللغة السنسكريتية "شترنكا" اي الاجزاء الاربعة التي يتألف منها الجند عندهم.. وهي الأفراس، والأفيال، والمركبات، والمشاة.. فأخذها الفرس عنهم نحو القرن السادس للميلاد، ثم أخذها العرب عن الفرس فحسبوا فارسية. وتكلفوا تعليلها كما رأيت. ولم يقتصر العرب على اقتباس الالفاظ من اللغات الاخرى واستبقائها على حالها. ولكنهم صرفوها وشقوها منها الافعال، ونوعوا معناها على ما اقتضته احوالهم.. فقد شقوا من لفظ النبي: "نبا" و "نتبا" و "نابا". وشقوا من "قبس" أفعالا وأسماء عديدة. ومن هذا القبيل "اللاجم" وهو "الكام" في الفارسية، فشقوا منه اولا "الجم الدابة" ألبسها اللجام و"النجست الدابة" مطاوع الجم. وجمعوا لجام على لجم وألجمه، ثم استخدموه مجازا فقالوا: "ألجمه الماء" أي بلغ فاده، وقالوا "لفظ لجامه" أي انصرف من حاجته مجهودا من الاعياء والعطش.. وقولهم "التقيّ ملجم" أرادوا أنه مقيّد اللسان والكف والمهر الخاتم في الفارسية. استعاره العرب وبنوا منه فعلا فقالوا: مهر الكتاب أي ختمه بالمهر. ومن ذلك ما شقوه من لفظ "ديوان" وهي أعجمية فقالوا: "دوّن" أي كتب اسمه في الجندية. وقس على ذلك كثيرا من الألفاظ الدخيلة التي يعتقد العرب أنها عربية، وقد شقوا منها الافعال والاسماء مثل "سراب" وهي تعريب "سيرآب" في الفارسية أي مملوء ماء. والزمهرير من "زم اريز" بالفارسية أي ضباب بارد. وجزاف من "كزاف" بالفارسية أي العبث من الكلام. والضنك من "تتك" في الفارسية ضيق، وقد شقوا منها أفعالا وأسماء ترجع الى هذا المعنى. ثم ان أكثر ما ادخله العرب الى لغتهم من الالفاظ الاجنبية، لم يكن له ما يقوم مقامه في لسانهم على ان كثيرا منه كانت له عندهم اسماء مشمورة. لا يبعد ان يكون بعضها دخيلا ايضا، فغلب استعمال الدخيل الجديد وأهمل القديم. ومن ذلك ان العرب كانوا يسمون الابريق "تامورة" والطاجن "مقلي" والهاوون "منحاز" او "مهراس" والميزاب "مئقب" والسكرجة "الثقوة" والمسك "المشموم" والجاسوس "الناطس" والتوت "الفرصاد" والاترج "المنك" والكوسج "اللط" والبادنجان "الانب" والرصاص "الصرفان" والخيار "القتد".. فهذه الاسماء وامثالها، أهملها العرب قبل الاسلام، بعد أن استبدلوا بأسماء دخيلة.. فعملوا ذلك عفوا بلا تواطؤ او قصد، وانما هو ناموس النمو يقتضي عليهم بذلك.

التغيير في الألفاظ

ذكرنا فيما تقدّم أمثلة ممّا دخل اللغة العربية من الالفاظ الاجنبية قبل زمن التاريخ الذي عبّرنا عنه بالعصر الجاهلي.. ونذكر الآن ما لحق ألفاظها الأصلية من التنوع والتفرع في ذلك العصر.. والأدلة على ذلك كثيرة، نكتفي منها بالوضوح الصريح.. فنذكر أولاً ما نستدل عليه من مقابلة العربية بأخواتها العبرانية والسريانية، ثم ما تشهد به حال اللغة العربية نفسها.

مقابلة العربية بأخواتها

من الحقائق المقررة أن العربية والعبرانية والسريانية، كانت في قديم الزمان لغة واحدة، كما كانت لغات عرب الشام ومصر، والعراق، والحجاز، في صدر الإسلام. فلما تفرق الشعب السامي، أخذت لغة كل قبيلة تتنوع بالنمو والتجدد على مقتضيات أحوالها، فتولدت منها لغات عديدة.. أشهرها اليوم العربية، والعبرانية، والسريانية.. كما تفرعت عربية قريش بعد الاسلام الى لغات الشام، ومصر، والعراق، والحجاز، وغيرها. ولكن الفرق بين فروع اللغة السامية، أبعد مما بين فروع اللغة العربية، لتقيد هذه بالقرآن وكتب اللغة. فاذا راجعت الألفاظ السامية المشتركة في العربية وأخواتها، رأيت مدلولاتها قد اختلفت في كل واحدة عما في الأخرى. والأدلة على ذلك لا تحصى، إذ لا تخلو المعجمات من شاهد أو غير شاهد في كل صفحة من صفحاتها.. فنكتفي بالإشارة الى بعضها على سبيل المثال..

فلفظ "الشتاء" في العربية مثلاً هو أصل مادة "شتاء" في القاموس، وكل مشتقاتها ترجع في دلالتها الى معنى الشتاء (الفصل المعروف)، فقالوا: شتا في المكان، أقام فيه شتاء، وشتا فلان دخل في شتاء، وأشتى القوم اشتاء أجدبوا في الشتاء.. الخ. ولم يدلنا صاحب القاموس على أصل هذا المعنى في هذا اللفظ، ولكنه أورد رأي المبرد في ذلك، فقال ان الشتاء "جمع شتوة" وان الشتوة "الغبراء التي تهب فيها الرياح والارض يابسة فيهب الغبار" وفي قوله تكلف.. على اننا اذا راجعنا هذه المادة في اللغات السامية، رأينا الاصل في دلالتها "الشرب" او "الري" او "الصب" فهي كذلك في العبرانية والسريانية الى اليوم. وقد شقوا منها الافعال والاسماء لمعان كثيرة ترجع الى الري ونحوه.. الا فصل الشتاء فإنهم شقوا له كلمة من اصل آخر يقرب منه لفظاً. ويؤخذ من مراجعات كثيرة ان المادة الاصلية (شتا) كانت تدل على الرطوبة او الري في اللغة السامية، فلما تفرقت القبائل كما تقدم، تولدت منها المشتقات وتنوعت معانيها على مقتضى الاحوال، فتولد منها لفظ الشتاء للمعنى المعروف له في العربية، وأهمل معنى الشرب والري منها. ومع ذلك فلو تدبرت مشتقات هذه اللفظة في أخوات العربية، لرأيتها تختلف الواحدة عما في الأخرى. وإذا بحثنا عن لفظ "شهر" في العربية بالمقابلة مع اخواتها، رأينا الاصل فيه الدلالة على الاستدارة، ثم سماوا القمر به لانه مستدير، ثم أطلقه العرب على التسهر لانهم كانوا يوقنون بالقمر. على ان دلالة على القمر لا تزال باقية العربية اليوم، وكذلك في السريانية (سهر) تدل عندهم على الشهر والقمر. وأما العبرانية فإن للقمر فيها لفظاً مشتقاً من مادة أخرى هي (برح) والاصل في معناها "الدوران" فاشتقوا منها "يارح" للدلالة على القمر وعلى الشهر. ومن هذه المادة في العربية "رواح" أي العشي. فكانوا يقولون: "راح فلان" أي جاء أو ذهب في العشي.. أي أن أصل المعنى راجع الى "العشي" بغير تقيد بالذهاب او المجيء مثل قولهم: أصبح وأمسى.. ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب في العشي، ثم صارت للدلالة على مطلق الذهاب.. حدث كل ذلك التنوع بلا قصد ولا تواطؤ.

ومن بقايا "يرح" في العربية، مادة أشكل على أئمة اللغة معرفة أصلها، فعدها بعضهم فارسية وعدها آخرون يونانية، واكتفى غيرهم بأنها غير عربية. وهي في الحقيقة سامية الأصل، ونعني بها لفظ "أرخ" أو "ورخ" أو "أرخ" بمعنى وقت، والأظهر عندنا أنها من بقايا اسم الشهر عندهم "يرح" -وبالإبدال بين الخاء والحاء هين- ومنه "التاريخ" تعريف الوقت، ثم تنوع معنى هذه اللفظة، فصاروا يدلون بها على علم التاريخ، أي ذكر الوقائع والحوادث.

ومن هذا القبيل "كتب" فان الاصل في دلالتها "حفر في الحجر، أو الخشب" فالظاهر انهم استعملوها في أول عهدهم بالكتابة، وكانوا يكتبون على الحجارة أو الخشب حفراً أو نحتاً، شأن الكتابة عند الأمم القديمة. فلما صاروا يكتبون بالمداد على الرقوق او الاقمشة، تحول معناها الى الكتابة المعروفة، ولم يبق لدلالاتها على الحفر أثر في العربية، وإن كنا نرى أثر ذلك في "قطب" ونحوها من تفرعات "قط" حكاية صوت القطع. فيلوح لنا الاصل في دلالة كتب (أو القطب) على الحفر، أنهم كانوا يقولون مثلاً "قط بالخشب" اي قطع في الخشب او حفر الخشب، ثم ألصقوا الباء بالفعل فصار "كتب" او "قطب" كما ألصق عامتنا الباء المذكورة بفعل المجيء، فبدلاً من ان يقولوا "جاء به" قالوا "جابه" وصرفه فقالوا "يجيبه، جابوه، يجيبوه" بدلاً من "يجيء به، جاءوا به، يجيئون به"..

ومثل "كتب" ايضاً "سطر" فإنها كانت تدل في الاصل على الحفر، ثم تحول معناها للدلالة على الكتابة للسبب عينه. ولا تزال "سطر" تدل على الحفر ايضاً في العبرانية، واما في العربية فقد بقيت الدلالة على ذلك في لفظ مجانس لها "سطر" او نحوها.

وكثيرا ما تحوّل المعنى في بعض الالفاظ بانتقاله من الكل الى الجزء، او من الصفة الى الموصوف مثل "اللحم" في العربية، فان معناها في اللغات السامية "الطعام" على اجماله، ثم خصصه العرب بالدلالة على اهم الاطعمة عندهم وهو اللحم، وصار في السريانية يدل على الخبز. والاصل في "طبخ" الدلالة على "الذبح" واللفظان متشابهان، فتحول معناها في العربية الى معالجة اللحم للطعام، واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها لفظا. و "الملح" اصل دلالاته في اللغات السامية كلها من "ملح او ملا" اي نبع الماء. ثم تحول معناها الى اكبر مستودعات الماء وهو "البحر". ونظرا لظهور الملوحة في مياه البحر اكثر من سائر صفاتها، ولان الملح يُستخرج منها سمّوا الملح بها. والظاهر أن هذه اللفظة كانت في امهات اللغات السامية والآرية قبل تفرقها.. فان اسم البحر في اليونانية يشبه ان يكون مبدلا من "ملح" او تكون ملح مبدلة منه، وكذلك في اللغة السنسكريتية.

و "انبوا" كانت تدل في اللغة السامية الاصلية على "الثمر" عموما، وما زالت تدل على ذلك في اللغة الاشورية، والآرامية. اما العبرانية فقد أدغست النون في الباء وعوض عنها بالتشديد فصارت (آبه) بتشديد الباء، عملا بقاعدة جارية في نحو ذلك باللغة العبرانية.. ثم شقوا من هذه اللفظة فعلا فقالوا (ابب) بمعنى أثمر، وأما في السريانية فقد أصاب هذه اللفظة نفس ما أصابها في العبرانية، وصارت (ابا) وهي تدل عندهم على الفاكهة، كالتين، والبطيخ، والزبيب، واللوز، والرمان. وأما في العربية، فقد حدث نحوذلك: ولكن "الأب" صار عندهم للدلالة على الكلأ والمرعى أو ما أنبتت الارض فقالوا: "الاب للبهائم كالفاكهة للناس".

وتحولت "انبوا" ايضا بالابدال الى "عنبو" ومنها "عنب" للدلالة على نوع واحد من الاثمار هو ثمر الكرم، وهذه دلالتها الان في اللغات العربية، والعبرانية، والسريانية، بعد ان كانت تدل في اقدم أزمانها على الثمر عموما.

ويقال نحو ذلك في "عبد" فانها في اللغات السامية تدل على العمل وخاصة الحرث في الحقل، ولم يبق من مشتقات "عبد" في العربية ما يدل على معناها الاصيلي الا "المعبدة" اي "المجرفة" او "المحراث". وفيما خلال ذلك فان "عبد" ومشتقاتها انما تدل على العبادة، ومنها "العبد" اي الرق و "التعبد" لان خدمة الحقول كان اكثرهم من الارقاء. ولما كان اكثر الارقاء من الزنوج، دل المولّدون بلفظ العبد على الزوج السود خاصة. ومن هذا القبيل "التلج" والاصل فيه الدلالة على البياض، ثم اطلق اشهر الواد البياض. وكذلك "مرء" فان اصل دلالتها في اللغات السامية على القوة، ومنها الى الرئاسة، ومنها الى اقوى الكائنات وهو الانسان. ولا تزال في السريانية تدل على الرب فقط، وهي عندهم (مرا) او "مريا" أما في العربية فغلبت فيها الدلالة على الرجل. وأما العبرانية، والسريانية، فللدلالة على الرجل فيهما الفاظ اخرى ترجع في اصل معناها الى القوة. وكأن هذا اللفظ قديم مشترك في امهات اللغات فانه في اللاتينية Vir ونحوه في الهندية.

ولهذا السبب استعمل العرب "بعل" للزوج، وهو يدل في الاصل على السيد والرب.. ومنه البعل اكبر آلهة الشعوب السامية، ومنها "هبل" كبير أصنام الكعبة.. ويظهر من مراجعة امهات اللغات الآرية ان هذا اللفظ انتقل منها الى اللغات السامية قبل تفرق شعوبها لانه في السنسكريتية "بالا" القوة، وفي اللاتينية Val-ere قوي.. او لعل الآريين نقلوه عن الساميين، أو كان في اللغة الاصلية قبل افتراق الآريين عن الساميين. ومن امثلة ما فقد اصله من الالفاظ السامية في اللغة العربية وبقي فرع لفظ "الشعر" بمعنى المنظوم.. فقد شقه صاحب القاموس من "شعر الرجل" بمعنى فطن وأحس، فقال: "وسمّي الشاعر شاعرا لفطنته وشعوره" ويلوح لنا من خلال هذا التعليل تسامح لا يرتاح اليه العقل. والظاهر عندنا ان "الشعر" مشتق من اصل آخر فيه معنى الغناء او الانشاد او الترتيل، فقد من العربية وبقي في بعض أخواتها.. ففي العبرانية أصلٌ فعليّ لفظه (شور) ومعناها صات او غنى او رتل، ومن مشتقاته (شير) قصيدة او انشودة، وبها سمي نشيد الاناشيد في التوراة، وامثاله من القصائد او الاناشيد التي رتلها اليهود في اسفارهم او حروبهم. واليهود اقدم اشتغالا بالنظم من العرب.. فالظاهر ان العرب اخذوا عنهم كلمة "شير" للقصيدة او الانشودة، كما اخذوا غيرها من الآداب الدينية والاخلاقية، وأبدلوا بآها عينا على عاداتهم في كثير من امثال هذا الابدال.. فصارت "شعر"، أطلقوها على الشعر باجماله. فلما جمعت اللغة عدّوا هذا اللفظ من مشتقات "شعر". وأما اصل مادة "شور" فقد ذهب من العربية. والقياس في مقابلة الالفاظ بين العربية والعبرانية، يقضي ان تلفظ هذه الكلمة في العربية "سور" بالسين ولا نجد في هذه المادة عندنا ما يماثل هذا المعنى، الا اذا اعتبرنا تسمية فصول القرآن سُورًا واحدها "سورة" فيكون المراد بها الانشودة او الترتيلة من قبيل التجويد.

ومن امثلة تنوع المعاني ان لفظ "الورق" في العربية اصله من "يرق" اخضر، ومنه ورق الشجر لاختضاره، ولا يزال من هذه المادة في العربية "البرقان" للمرض المعروف وهو اخضرار الجلد او اصفراره. وقد شقه صاحب القاموس من "ارق".

وقس على ذلك مئات من الامثلة، وتشهد على ما لحق ألفاظ اللغة العربية من تنوع معانيها ومدلولاتها قبل زمن التأريخ، باعتبار مقابلتها بالفاظ أخواتها السامية.

اللغة العربية وحدها

على أننا لو اقتصرنا على مراجعة المعجمات العربية وحدها، لاتضح لنا هذا الناموس بأجلى بيان.. اذ نرى للمادة الواحدة او اللفظ الواحد عدة معانٍ متفرعة من معنى واحد، ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الأحوال. ولا نحتاج في اثبات ذلك الى ايراد الشواهد لأنه بديهي، وانما يحسن بنا أن نشير الى اسباب ذلك التنوع وهي كثيرة، وقد ذكرنا بعضها فيما تقدّم من الكلام في مقابلة الالفاظ العربية بالفاظ أخواتها، كاشتقاق معنى الملح من البحر، ومعنى الثلج من البياض، وغير ذلك مما بينه تناسب في المعنى. وقد تكتسب الكلمة معنى جديدا من عادة او عقيدة، مثل قولهم: "بنى على أهله أو بأهله" بمعنى تزوّج. وليس في أصل فعل البناء هذا المعنى، وانما اكتسبه من عادة كانت جارية عند العرب، وهي ان الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة الزفاف. ومن هذا القبيل تحوّل معنى القمر الى الشهر، لأنهم كانوا يوقّتون بالقمر.

ومن أسباب زيادة النمو في اللغة العربية غير النحت ولابدال والقلب، التصحيف وهو تبديل بين الحروف المتشابهة شكلا كالباء والتاء والثاء والنون والياء، أو الجيم والحاء، أو الدال والذال، أو الراء والزاي، أو السين والشين، وقس عليه..

فمن أمثلة ما ورد بمعنى واحد وسببه التصحيف، قولهم رجل صلب وصلت، والدبر والدير، والكرت والكرب، وورغات وورغاب، والجلجلة والحلحلة، وجاض وحاص، والنافجة والنافخة، وهو كثير.. وقد ذكر منه علماء اللغة مئات. والغالب أن ذلك التصحيف لم يحدث الا بعد تدوين اللغة، لأنه خطأ بقراءة الخطوط.

ومما اقتصت به لغة العرب من نتائج هذا النمو، ورود الالفاظ الكثيرة للمعنى الواحد.. فعندهم للسنة 24 اسما، وللنور 21 اسما، وللظلام 25 اسما، وللشمس 29 اسما، وللشباب 50 اسما، للمطر 84 اسما، للبئر 88 اسما، للماء 170 اسما، للبن 12 اسما، وللعلس نحو ذلك، وللخمر 100 اسم، وللأسد 350 اسما، وللحية 100 اسم، ومثل ذلك للجمال. أما الناقة فأسماءها 255 اسما.. وقس على ذلك أسماء: الثور، والفرس، والحمار، وغيرها من الحيوانات التي كانت مألوفاة عند العرب، وأسماء الأسلحة: كالسيف، والرمح، وغيرها. ناهيك بمترادف الصفات، فعندهم للطويل 91 لفظا، وللقصير 160 لفظا، ونحو ذلك للشجاع، والكريم، والبخيل، مما يضيق المقام عن استيفائه.

ومن خصائص اللغة العربية أسماء الأضداد، فإن فيها مئات من الالفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين: مثل قولهم "قعد" للقيام والجلوس و"نضح" للعطش والري و"ذاب" للسيولة والجمود و"أفسد" للاسراع والابطاء و"اقوى" للافتقار او الاستغناء.

ومن خصائصها أيضا، دلالة اللفظ الواحد على معانٍ كثيرة.. فمن ألفاظها نيف ومائتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معانٍ.. ونيف مائة لفظ يدل الواحد منها على اربعة، وكذلك التي تدل على خمسة معانٍ. وقس على ذلك ما يدل على ستة معانٍ، فسبعة فثمانية فتسعة الى خمسة وعشرين معنى، كالحميم، والفن، والطيس. ومما تزيد مدلولاته على ذلك "الخال" فإنها تدل على 27 معنى، واللفظ "العين" 35 معنى، واللفظ "العجوز" 60 معنى.

فتكثر المترادفات والاضداد ودلالة اللفظ الواحد على معانٍ كثيرة، لا يحدث الا من تفرّع ألفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل. وبالطبع لم يتكون للشيء الواحد 100 اسم أو 200 اسم الا بتوالي الاجيال.. وأحدث تلك الالفاظ أكثرها استعمالا، وأقدمها أقربها الى الالهال.

الألفاظ الإسلامية

العصر الاسلامي

نريد بالعصر الاسلامي في صدد اللغة العربية، الزمن الذي مرّ باللغة بعد ظهور الاسلام، حتى كتبت العلوم الاسلامية: كالتفسير، والحديث، وسائر العلوم الشرعية واللغوية ونحوها، الى عصر النهضة العباسية. ولا مشاحة في ان الاسلام، أثر في اللغة تأثيرا كبيرا، كان تابعا لتأثيره في العادات والآداب والاعتقادات.. ويدخل في ذلك ما طرأ على اللغة من الاصطلاحات الدينية، والفقهية، واللغوية، والأدبية، وما دخلها من الالفاظ الادارية على أثر انشاء الحكومة ودوائرها وفروعها، ثم الالفاظ العلمية، والفلسفية، بترجمة كتب اليونان، والفرس، والهنود، الى العربية.

ولذلك قسمنا الكلام في العصر الاسلامي الى ثلاثة فصول: نقّصر في هذا الفصل على ما دخل اللغة العربية من التغيير بسبب العلوم

الاسلامية وهو ما عبّرنا عنه بالالفاظ الاسلامية، ونفرد لكل من التغييرات الادارية والاجنبية فصلا خاصا.

فتأثير العلوم الاسلامية على اللغة، يكاد يكون محصورا في تنويع الالفاظ العربية وتغيير معانيها للتعبير عما أحدثته الاسلام من المعاني الجديدة، بلا ادخال ألفاظ أعجمية الا نادرا.

1- الاصطلاحات الشرعية والفقهية

وأشهر ما حدث من التّنوّعات في الالفاظ العربية في العصر الاسلامي، المصطلحات الدينية، والشرعية، والفقهية، واللغوية.. وكانت ألفاظها موجودة قبل الاسلام، ولكنها كانت تدل على معان اخرى، فتحوّلت للدلالة على ما يقارب من المعاني الجديدة. فلفظ "المؤمن" مثلا كان معروفا في الجاهلية، ولكنه كان يدل عندهم على الامان، او الايمان وهو التصديق، فأصبح بعد الاسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر، وله في الشريعة شروط معينة لم تكن من قبل.. وكذلك المسلم، والكافر، والفاسق، ونحوه. ومما حدث من المصطلحات الشرعية الصلاة، وأصلها في العربية الدعاء، وكذلك الركوع، والسجود، والحج، والزكاة، والنكاح، فقد كان لهذه الالفاظ وأشباهها معان تبدّلت بالاسلام وتنوّعت.

وقس على ذلك في الاصطلاحات الفقهية.. كالابلاء، والطهار، والعدة، والحصانة، والنفقة، والاعتاق، والاستيلاء، والتعزير، واللقيط، والآبق، والوديعة، والعارية، والشفعة، والمناسخة، والفرائض، والقسامة، وغيرها.

2- الاصطلاحات اللغوية

ويقال نحو ذلك في الاصطلاحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللغوية.. كالنحو، والعروض، والشعر، والاعراب، والادغام، والاعلال، والحقيقة، والمجاز، والنقض، والمنع، والقلب، والرفع، والنصب، والخفض، والمديد، والطويل، وغيرها من أسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف، وهي كثيرة جدا ولها فروع واشتقاقات.. حتى لقد اصبح لفظ الواحد معنى فقهي، وآخر لغوي، وآخر عروضي، وآخر ديني، مما لا يمكن حصره. وسنذكر أمثلة اخرى عند الكلام على اصطلاحات المنطق وعلم الكلام. وحدث الاسلام تغييرا كبيرا في اساليب التعبير، كقولهم: "أطال الله بقاءك" فان أول من قالها عمر بن الخطاب لعلي بن ابي طالب.

3- الالفاظ المهملة

وكما أحدث الاسلام ألفاظا جديدة للتعبير عن معان جديدة، اقتضاها الشرع الجديد والعلم الجديد.. فقد محا من اللغة ألفاظا قديمة، ذهبت بذهاب بعض اعتقادات الجاهلية وعاداتهم.. منها قولهم: "المربع" وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية. و"النشيط" وهي ما أصاب الرئيس قبل ان يصير الى بيضة القوم، أو ما يغنمه ال غزاة في الطريق قبل الوصول الى الموضع الذي قصدوه. و"المكس" وهو دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الاسواق في الجاهلية. وكذلك: الاتاوة، والحلوان. ومما أبطل قولهم: "أنعم صباحا وأنعم ظلاما" وقولهم المملك: "أبيت اللعن" وقول المملوك لمالكه: "ربي". وتسمية من لم يحج "صرورة" وغير ذلك. وقد نرى بعض هذه الالفاظ مستعملا في اللغة الآن فهو، إما مستعمل في غير معناه الاصلي.. وإما أنه قد أرجع اليه بعد إهماله.. على أننا لا نشك في إهمال كثير من الالفاظ العربية في القرنين الاولين للهجرة، ولا سبب لذلك غير ما يقتضيه النمو من التجدد والدثور.. يكفي لتحقيق ذلك، مراجعة المعجمات وتدبر الفاظها، فإنك ترى فيها مئات وألوف من الالفاظ التي بطل استعمالها، ولا نظنهم جمعوها في صدر الاسلام، إلا لأنها كانت شائعة على ألسنة العرب. وقد يعترض على ذلك ان تلك الالفاظ إنما أهملت في العصور الاخيرة فلا ننكر إهمال بعضها في هذه العصور، ولكن جانبنا كبيرا منها أهمل في العصور الأولى، فضلا عما قلّ استعماله قبل الاسلام.. حتى لقد كان أحدهم يسمع أعرابيا يتكلم، فإذا ذكر ألفاظا مهملة أغلق على السامع فهمها ولو كان لغويا.

ويُروى عن ابي زيد الانصاري انه قال: "بينما انا في المسجد الحرام، اذ وقف علينا اعرابي، فقال: "يا مسلمون بعبد الحمد لله والصلاة على نبيه- إني امرؤ من هذا الملطاط الشرقي، المواصي أسياف تهامة، عكفت علينا سنون محش، فأجبتت الذري، وهشست العري، وجمشت النجم، وأعجبت البهم، وهمت الشحم، والتحبت اللحم، وأحجنت العظم، وغادرت التراب مورا، والماء غورا، والناس أوزاعا، والنبط قعاع، والزهيل جراع، والمقام جعجاعا، يصبحنا الهاوي، ويطرقتنا العاوي، فخرجت لا أتلفع بوصيده، ولا أتقوت بمهيده، فالخصات وقعه، والركبات زلعه، والاطراف فقعه، والجسم مسلهم، والنظر مدرهم، اعشوا فاغطش، وأضحى فاخفش، اسهل ظالعا، وأحزن راکعا، فهل من أمر بمير، أو داع بخير، وقاكم الله سطوة القادر، وملكة الكاهر، وسوء الموارد، وفضوح المصادر.. قال أبو زيد فأعطيته دينارا وكتبت كلامه واستفسرت منه ما لم أعرفه" وابو زيد الأنصاري من فطاحل أئمة اللغة. وأمثال هذه كثيرة في أخبار العرب.

الألفاظ الإدارية

مصالح الدولة

كانت مصالح الدولة قبل الاسلام، عبارة عن مناصب كبار الامراء من قريش في الكعبة، كالسدانة، والسقاية، والردافة، والقيادة، والمشورة، والاعنة، والسفارة، والحكومة، والعمارة، وغيرها.. وكلها عربية يدلّ لفظها على معناها. فلمّا ظهر الاسلام، وفتح المسلمون الشام، والعراق، ومصر، وفارس، أنشأوا على أنقاض دولتي الروم، والفرس، دولة دُونوا فيها الدواوين، ونظّموا الجند، وسنّوا القوانين، على ما اقتضا تَمَنُّهم، مما لم يكن له مثيل في جاهليّتهم.. فاضطروا للتعبير عن ذلك الى الفاظ جديدة، فاستعاروا بعضها من لغات القوم الذين أقاموا بينهم وخاصة الفرس، واليونان، والرومان، واستعملوا لما بقي ألفاظا عربية حوّلوا معانيها حتى تؤدّي معاني تلك الموضوعات، كما فعلوا في الاصطلاحات الشرعية واللغوية.. ولو شئنا ذكر كل ما استحدث من تلك الالفاظ لما وسعه غير المجلّدات.. فنكتفي بالأمثلة.

1- الالفاظ الادارية العربية

أول الالفاظ الادارية التي استحدثت في الدولة العربية "الخليفة" فإنها كانت تدلّ في الاصل على من يخلف غيره ويقوم مقامه بدون تخصيص، ثم انحصر معناها فيمن يخلف النبي، وأول الخلفاء أبو بكر.. ومنها صارت تؤدّي معنى "السلطان يحكم بين الخصوم والسلطان الاعظم والمحكم الذي يُستخلف عن قبله" ويقال نحو ذلك في سائر مناصب الدولة، كالوزارة، والامارة، والنقابة، والكتابة، والحجابه، والشرطة، ونحوها.

فان الوزارة كانت تدل على المعاونة، ثم تغير باختلاف الدول واختلاف حال الوزراء فيها.. ويشقّ دار مستتر لفظ الوزير من اصل فارسي قديم (بهلويّ) هذا نطقه "ويجيرا" ومعناها حكم، أو أقر.

ومثل ذلك "الكتاب" فقد رأيت فيما تقدّم ان الاصل في دلالة "كتب" الحفر على الخشب او الحجر، لأنهم كانوا يكتبون بالحفر.. فلما كتبوا بالمداد، صار معناها الكتابة المعروفة. ولما ظهر الاسلام احتاجوا الى من يكتب السور فكان الذين يكتبونها يسمون كتبة الوحي. وكان بعضهم يكتبون بين الناس في المدينة، فلما تولّى أبو بكر استخدام كاتب يكتب له الكتب الى العمال والقواد.. ولما تولى عمر ودون الدواوين استخدم الكتبة لضبط أسماء الجند وأعطيتهم، فصار الكاتب يدل على الكتابة والحساب. ولما استبد الكتاب في الدولة المصرية وغيرها، صار الكاتب بمعنى الوزير.. ويراد بالكاتب الآن العالم المنشيء.

ومن ذلك لفظ "الدولة" فقد كانوا يريدون "انقلاب الزمان والعقبة في المال والفتح في الحرب" ثم دلّوا به على الملّك ووزرائه ورجال حكمته، ولم يكن لها هذه الدلالة قبلا.

و "الحجابه" تدل في الاصل على الستر والمنع، فالحاجب الساتر او المانع، فكان حاجب الخليفة من أصغر رجال الدولة. فلما ضعف الخلفاء واستبدّ الحجاب، صار معنى الحاجب عندهم مثل الوزير.

وقس على ذلك سائر مناصب الدولة، كالامارة، والشرطة، والقضاء، والحسبة، والنقابة، والامامة، وغيرها من اصطلاحات الجند كالمسترزقة، والمتطوّعة، والعلوفة، والعسكر.. زضروب الحرب وأبواب الهجوم كالزحف، والكر، والفر، والبيات، والكفاح، والغزّة.. وصنوف الأسلحة: كالدبابة، والكنيش، والعرادة، وغيرها. ناهيك باصطلاحات الدواوين على إجمالها، كقولهم الثغور، والعواصم، والاقليم، والقصة، والعمل، والولاية، والضّيعاء، والحكومة، والسكة، والتوقيع، والوظيفة والخراج، والجزية، والعشور، والمرافق، والصوافي، والجوالي، والجباية، والوقف، والمصادرة، والمستغلات، والصدقة، والمكوس، والمراصد، ودار الضرب، والضمان، والدفاتر، والجرائد، والخرائط، والايغار، والراتب، والجاري، والعطاء، والبيعة، والدعوة، والختم، والخطط، والمطالعة، والمؤامرة، وغير ذلك كثير جدا.

فالالفاظ المذكورة عربية الاصل واكثرها معروف قبل الاسلام، ولكن مدلولاتها تغيرت بتغير احوال المسلمين بعد انشاء دولتهم.. اذ حدث بانشائها معان جديدة اضطروا في التعبير عنها الى الفاظ جديدة فنوّعوا ما عندهم.. اما عمدا او عفوا فصارت الى ماهي عليه.

"فالخراج" مثلا كان معناه في الجاهلية الكراء والغلة، ويدل ذلك على معنى ضرب الخراج في الاسلام، فانهم كانوا يعدّون الارض ملكا لهم وقد سلّموها لاهلها على سبيل الايجار بالكراء، فصار معنى الخراج بعد ذلك "ما وضع على رقاب الارض من حقوق تؤدّي عنها"

ثم صار الخراج مقاسمة او مسامحة او سحيا او سقيا، واكثرها الفاظ جديدة لمعان جديدة.

و"الحكومة" كانت تدل في الجاهلية على الفصل بين المتخاصمين لانها مصدر حكم اي قضي، وتلك كانت اعمال صاحب الحكومة في الجاهلية، ثم تحول معناها الى "أرباب السياسة او رجال الدولة".

و"السكة" في الاصل الحديد المنقوشة التي كانوا يضربون عليها النقود، ثم سميت النقود به، واشتقوا منها الافعال والاسماء لهذا المعنى.

و"التوقيع" الاصل فيه "التأثير" من قولهم: "وقع الوبر ظهر البعير توقيعاً أثر فيه" ثم استعملوه فب الاسلام لما يوقعه الكاتب على القصص المرفوعة الى الخليفة او السلطان، او الامير، فكان الكاتب يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه.. فاذا عرضت قصة (عرضحال) على السلطان، امر الكاتب ان يوقع عليها (يؤثر) بما يجب اجراؤه. ثم تحول معناها الى اسم علامة السلطان كالامضاء عندنا.. وعلى نحو هذا النمط، تحول معنى "الامضاء" اليوم الى التوقيع، ومعناها في الاصل "التنفيذ" فكان توقيع السلطان على القصة عبارة عن امر رجال الدولة في امضائها، اي تنفيذ توقيعها، ثم تحول معناها الى التوقيع اي وضع العلامة على الصكوك ونحوها. ومن هذا القبيل "الوظيفة" فان الاصل في معناها "ما يقدر من عمل، وطعام، ورزق، وغير ذلك" ومنها وظف عليه الخراج ونحوه، أي قدره.. فاستعملها كتاب الدولة العربية لهذا المعنى مع بعض الانحراف، فقالوا: "وظف الرجل توظيفاً: عين له في كل يوم وظيفة" فالموظف هو الذي يأخذ الوظيفة او الراتب.. ثم توسعوا في لفظ الوظيفة، فدلوا بها على المنصب او الخدمة المعينة. والمشهور ان استعمالها لهذا المعنى من اصطلاحات هذا العصر، ولكنه أقدم من ذلك كثيرا.. فقد استعملها لهذا المعنى جماعة من فحول الكتبة، كابن خلدون في مقدمته، والمقرئ في خطه، وغيرها. وتولد في اثناء تحول هذه اللفظة الى هذا المعنى، ألفاظ أخرى تقوم مقامها في معناها الاول، كالراتب، والجاري، والمأية (وهذه فارسية الاصل من "ماه" شهر والمأية الشهرية).. واستحدثوا لفظة أخرى للمنصب لم يكن لها هذا المعنى من قبل. وهي "الخطة" فمعناها في القاموس "الارض التي تنزلها ولم ينزل بها نازل قبلك" و"الخطة" بالضم "الخصلة وشبه القصة والامر والجهل" فاستعملوها بمعنى المنصب لعلاقة لا نعلمها.. ومن ذلك قول ابن خلدون: "الوزارة أم الخطط الاسلامية والرتب الملوكية".

2- انتقال اللفظ من معنى الى آخر

وانتقال الالفاظ من معنى الى آخر بلا علاقة ظاهرة بين المعنيين كثير في اللغة العربية، ومنها الاضداد. أي اللفظ ذو المعنيين المتضادين. وأسباب هذا الانتقال كثيرة يصعب تتبعها في كل ما نراه من الاختلافات في معاني اللفظ الواحد أو اشتقاقاته، لكننا نذكر أربعة منها على سبيل المثال:

أ- دخول كلمة أعجمية لفظها يشبه لفظ كلمة عربية، فيجعلونها من مشتقاتها.. كما فعلوا بالبلاط بمعنى القصر، فانهم اخذوها عن اللاتينية، فأشبهت لفظ البلاط الحجر المعروف فجعلوها من مشتقات "بلط". ومثل قولهم "تبشير" فقد شقها القاموس من "بشر" فقال: "التبشير البشرى.. وتبشير الصبح أوائله، وكذلك أوائل كل شيء ولا يكون منه فعل" واللفظة فارسية مركبة من (تبا) "مثل" و(شير) "البن" اي ابيض كاللبن، وكان الفرس يدلون بها على بياض الصبح عند أول شروق الشمس، فاقتبسها العرب منهم ودلوا بها على أوائل كل شيء وعلى البشرى.

ب- استعمال لفظين معا لمعنى، ثم اهمال احدهما بالاستعمال التماسا للاختصار، فيبقى الآخر للدلالة على ذلك المعنى.. مثل قولهم "ارتفاع" بمعنى جباية فيقولون: "ارتفاع الدولة" ويريدون مقدار جبايتها اي مجموع دخلها. وليس في هذه اللفظة ما يلح منه هذا المعنى ولا ذكره لها القاموس. وأصل هذه الدلالة انهم كانوا يستعملون ارتفاع مع لفظ جباية، فيقولون: "ارتفاع جباية الدولة" اي مقدار ما بلغت اليه جبايتها (من ارتفاع السعر اي غلا) ثم أسقطوا "الجباية" للاختصار فظلت "ارتفاع" وحدها لنفس ذلك المعنى.

ومثل ذلك قولهم: "أشفي العليل" بمعنى "امتنع شفاءه" (أي ضد معنى المادة الاصيلي الشفاء) وسبب هذا التضاد ان "أشفي" من مشتقات "شفا" الواوية بمعنى الاشراف والاقتراب، وليس من مشتقات "شفي" الياثية كما اوردها القاموس.. فكانوا يقولون: "أشفي المريض على الموت" اي أشرف عليه، ثم اختصروه، فقالوا: "أشفي المريض" لنفس المعنى، والتبس على صاحب القاموس أصل مادتها، فعدها من مشتقات شفي.

وكذلك قولهم: "عقد له" بمعنى "ولاه" وليس في مادة "عقد" ما يقرب من هذا المعنى، ولا رأينا في القاموس انها تستعمل لمعنى الولاية، ولكنها كثيرة الورود في كتب التاريخ لهذا المعنى. ولاصل في هذه الدلالة، ان الخلفاء في صدر الاسلام، كانوا اذا وجهوا جيشا الى حرب عقدوا له الولاية وسلموها الى الامراء، لكل امير لواء.. وكان توجيههم الى الفتح يتضمن معنى الولاية على البلاد التي يفتحونها،

ثم صار الخلفاء بعدهم يعتقدون ذلك اللواء للامراء عند توليهم بعض الامارات.. فيقال: "عقد له اللواء على البلد الفلاني" اي ولّاه اياه، ثم اختصروا فقالوا: "عقله".

ولمثل هذا السبب يستعمل كُتّابنا اليوم "برهة" بمعنى الزمن القصير، وهي تدل في الاصل على الزمن الطويل.. فالظاهر انهم كانوا يقولون: "برهة قصيرة" او "برهة وجيزة" للزمن القصيرة.. ثم استعملوا برهة وحدها لهذا المعنى.

-3- تفرع اللفظ الواحد بالقلب والاببدال الى الفاظ كثيرة تدل على تفرعات المعنى الاصلي

وأمثلة ذلك كثيرة في اللغة لا حاجة الى ذكرها. ولكن قد يتنوع المعنى ويبقى اللفظ على حاله، فيندر ان يهتدي الى سبب ذلك التنوع.. ومن اغرب الامثلة على ذلك "جن" ومشتقاتها، فانها تدل على معان كثيرة ترجع الى "الظلمة، والاختفاء، والجنون، والجن، والجنة".. ولا يخفى ما بين هذه المعاني من التباين والتناقض.. فلنتبع هذه اللفظة الى اصلها لعلنا نهتدي الى تحليل هذا الاختلاف:

يظهر لنا ان هذه المادة قديمة في تاريخ اللغة، بدليل وجودها في جميع اللغات السامية وأمهات اللغات الآرية.. فهي في العبرانية، والسرانية على نحو ما هي عليه في العربية لفظا ومعنى. وفي السنسكريتية "جان" الروح وكذلك في الفارسية. ويظهر انها حدثت والانسان في اول ادوار حياته، اي يوم كان المغول، والآريون، والساميون، وغيرهم عائلة واحدة لأن الصينيين يدلون على الروح بنجو هذا اللفظ اي "تسن" واما في اليونانية واللاتينية فتدل على الولادة، او التسلسل، وهما من فروع المعنى الاصلي.

و"جانا" في السنسكريتية "مسكن الارواح، او الآلهة" ولعل هذا هو الاصل في دلالة لفظ "الجنة" (الفردوس) في اللغات السامية ايضا.. ثم تنوَّلت حكاية الخليفة عند الساميين أجيالا قبل تدوينها، فعرض في اثناء ذلك انتقالهم الى اعتقاد التوحيد، فأثر هذا الانتقال على معنى تلك اللفظة وتحول الى ما نعلمه.. فلما كتب سفر الخليفة، كان المعنى الاول قد تنوَّس من اللغة العبرانية، فضاغ كما ضاع معنى لفظ "عدن".. فأدَّى ذلك الى الرجم في تفسيرهما بعد ذلك. اما في السنسكريتية، فلفظ "ادن، أو عدن" معناه الاكل، او الطعام.. وربما كان هذا هو المراد بجنة عدن وغرس له فيها الاشجار ليأكل، ومنه من شجرة الخير والشر.. كأنه اقامة في جنة فيها أكل.

ثم ان دلالة مادة "جان" او "جن" على الروح في اللغات السامية لا يزال اثرها باقيا في لفظ "الجان" العربية، والاصل في دلالتها "كل ما استتر عن الحواس من الملائكة او الشياطين" اي الارواح على اطلاقها. وكان اعتقاد الناس في سبب الجنون، انه حلول تلك الارواح في المجنون.. فعبروا عن المجنون بلفظ مشتق من "الجان" فقالوا: "جنَّ الرجل على المجهول، زال عقله او فسد او دخلته الجن". ونظرا لاختفاء الارواح عن حواس البشر، وخاصة عن أنظارهم، دلَّوا بتلك اللفظة على الظلمة، والاختفاء او الاستتار.. فقالوا جنَّ الليل: أظلم، وجنَّ الليل: ستره.. فتعلل بذلك تنوع معنى هذه اللفظة الى المعاني الخمسة التي ذكرناها، وكل ما لمشتقات هذه اللفظة من المعاني يرجع الى احداها.

ويحسن بنا في هذا المقام ان نتبع تاريخ هذه اللفظة في الافرنجية وما يقابلها في اللغات السامية.. فقد خسرت دلالتها على "الروح" في كل اللغات الآرية (الا الفارسية والسنسكريتية) وصارت تدل على ما يقارب ذلك وهو التوليد من Gen ومشتقاتها، ومنها Genus في اللاتينية ومشتقاتها بمعنى الصنف من الناس.. ويقابلها في العربية "جنس" ويقابل Gen في العربية "جيل" واللفظ والمعنى متقاربان.

ولم تخسر لفظة "جان" دلالتها على "الروح" الا بعد ان تولد ما يقوم مقامها، لاسباب ترجع الى تغيير حدث في عادات الامم او اعتقاداتهم. واهم ما حدث في اعتقادات البشر الانتقال من الشرك الى التوحيد.. فلما اعتقد الساميون بالتوحيد، أصبحت الارواح السماوية عندهم اي الملائكة خدما للاله العظيم.. ينفذها حيث شاء لتبليغ او امره او نواهيه، فعبروا عن الروح بلفظ "الرسول" وهذا معنى "الملاك" في اللغات السامية فانه اسم مفعول من "هالك" أرسل، وأصل المادة "هلك" مشى او سار.. ومنها قولهم في التوراة ملاك الرب: أي رسول الله. وقد فقدت هذه المادة في العربية، ولا يزال اثرها باقيا في "ألوكة" أي الرسالة.

وحدث نحو ذلك في اللغات الآرية فان معنى الملاك عندهم يرجع الى "Angel" وهي مأخوذة من (أنجلوس) اليونانية ومعناها "الرسول" كأنهم ترجموا لفظ ملاك الى لسانهم حرفيا.

-4- اكتساب اللفظ معنى جديدا من عادة شائعة

كما اكتسب لفظ "بني" معنى الزواج من ضرب القباب على العروس ليلة الزفاف، وجملة "عقد له" معنى "ولاه" وقد تقدم ذكرها. وبالجمل، فقد حدث في أثناء التغيير الاداري في الدولة الاسلامية، نهضة عظيمة أحدثت تغييرا كبيرا في اللغة لفظا ومعنى.. وليس ما ذكرناه الا امثلة قليلة.

الألفاظ الادارية الاعجمية

أما الألفاظ التي اقتبسها العرب في أثناء انشاء دولتهم فكثيرة ايضاً، نأتي بأمثلة منها:

من اقدم ما اقتبسوه من الألفاظ الادارية الفارسية "الديوان" على عهد عمر بن الخطاب، فانه اول من دَوّن الدواوين في الاسلام، فوضع الديوان على نحو ما كان عند الفرس، واستعار له اللفظ الفارسي.. فاستعمله اولاً للدلالة على ديوان الجند، فكانوا اذا قالوا الديوان ارادوا ديوان الجند فقط، ثم أطلقوه على سائر الدواوين، وألحقوا به ألفاظاً تميّز بينها: كديوان الانشاء، وديوان العرض، وديوان الضياع، وديوان الخراج، وهي كثيرة. ودلوا به على الكتاب الذي تدوّن فيه أسماء الجنود، فكانوا اذا قالوا: فلان من اهل الديوان، ارادوا انه ممن اثبتت اسماءهم في ذلك الكتاب. ثم أطلق على كل كتاب، ثم انحصر في الدلالة على الكتب التي تجمع فيها الاشعار.. فاذا قالوا: ديوان فلان: ارادوا به مجموع أشعاره.

ولما كان اهل الديوان يجتمعون في مكان واحد، سموا ذلك المكان ديواناً، وأطلقوا لفظ الديوان على كل مجلس يجتمع فيه لاقامة المصالح او النظر فيها.. والعامة تعبّر بالديوان عن المقعد.

وقس على ذلك كثيرا من الألفاظ الفارسية المتعلقة باصطلاحات الحكومة، وخاصة الجند الاسلحة ونحوها: كالخوذة، والجامكية، والجزية، والدولاب، والدلق، ودهقان، والدانق، ورستاق، وسباهي، والبريد، وزنديق، وكسرى، ونيشان، ويلمق، والطراز ونحوها. والألفاظ اليونانية الادارية قليلة في اللغة العربية، ومنها: الاسطول، والمنجنيق، والدرهم، والبطاقة، والقنداق، والكردوس، والليمان. واذا تدبّرت تاريخ الألفاظ في لغاتها الاصلية او بعد انتقالها الى العربية، رأيت مدلولاتها تنوّعت بتنوّع الاحوال، فالدرهم مثلاً الاصل فيه الدلالة على الوزن، ثم دلّوا به على نقد وزنه درهم، ثم أطلق على النقود كلها. أما الألفاظ اللاتينية، فمنها: البلاط (بمعنى قصر الملك) والدينار والدمستق. وربما أدخلوا ألفاظاً تركية، أو هندية، أو كلدانية، أو نبطية، أو نحوها.. مما يضيق المقام عن استيفائه.

الألفاظ العلمية

العصر العباسي

نريد بالألفاظ العلمية ما اقتضاه نقل كتب العلم، والفلسفة الى اللغة العربية في العصر العباسي من الألفاظ الجديدة، لتأدية ما جدّ من المعاني، مما لم يكن له مثيل في لسان العرب، كالمصطلحات الطبية، والكيمائية، والفلسفية، والطبيعية، والرياضية، والفلكية، والمنطقية، وما ألحق بذلك من مصطلحات علم الكلام، والتصوّف، ونحوهما.

وشأن أهل العصر العباسي في نقل تلك العلوم من اليونانية، والفارسية، والهندية، وغيرها، مثل شأننا في نقل علوم هذا العصر من الفرنسية، والانجليزية، والالمانية، وغيرها.. بل هم كانوا أحوج منا الى اقتباس الألفاظ الاعجمية، وتنويع المعاني العربية لاستغنائها عن كثير من ذلك، بما وصل الينا مما اقتبسوه ونوّعوه من تلك الألفاظ.

ولم تقتصر تلك النهضة العلمية على تنويع الألفاظ وتبديلها، ولكنها احدثت تنوعاً في التعبير يسهل علينا تصوّره لكثرة في نهضتنا هذه مما سنذكره في حينه.. فالتغيير الذي أصاب اللغة العربية بنقل كتب العلم، والفلسفة قسماً: احدهما في المفردات، والآخر في التراكيب. والتغيير اللفظي إما بتنوّع الألفاظ العربية، أو باقتباس ألفاظ أعجمية.

الألفاظ العلمية العربية

هي ألفاظ عربية تنوّعت معانيها، للدلالة على ما حدث من المعاني الجديدة العلمية، والفلسفية، التي تنوّعت من قبل للدلالة على المعاني الشرعية، واللغوية، والادبية في صدر الاسلام.

واول تلك الألفاظ، أسماء العلوم التي نقلت الى لساننا او حدثت فيه على أثر ذلك، كالطبيعية، والالهيات، والرياضيات، والمنطق، والهيئة، والجبر، والمقابلة، ونحو ذلك، مع ما في كل علم من الاصطلاحات الخاصة به، وهي كثيرة جداً.. اليك أمثلة منها:

1- الالفاظ الطبية

فالالفاظ الطبية العربية لم يكن منها في الجاهلية الا مفردات قليلة، كالحجامة، والكَيّ، ونحوهما.. فحدث منها ما يدل على فنون الطب: كالكحالة، والصيدلة، والتشريح، والجراحة، والتوليد، ومنها ما يختص باصطلاحات كل فن: كأسماء الرطوبات، والأمزجة، والاختلاط من الحار، والبارد، والجاف، واليابس، والسوداء، والصفراء، والبلغم، والنبض، والتخمة، والانذار، والهضم، والبحران، والمشاركات.

وأسماء الأدوية: كالمسخرات، والمبردات، والمرطبات، والمجففات، والمسهلات، والتطولات، والمخدرات، والاستفراغات، والسعوطات، والادهان، والمراهم، والأطلية.

والكلمات الدالة على أثر تلك الادوية، مثل: ملطف، ومحلل، ومنضج، ومخشن، وهاضم، وكاسر الرياح، ومخمر، ومحكك، ومقرح، وأكّال، ولاذع، ومفتت، ومعفن، وكاو، ومبرد، ومقو، ومخدر، ومرطب، وعاصر، وقابض، ومسهل، ومدر، ومعرق، ومزلق، ومملس، وترياق، وغير ذلك.

ومن الالفاظ الجراحية: الفسخ، والتهك، والوثي، والرض، والخلع، والفتق، وتفرق الاتصال، ومفارقة الوضع، والجبار، وغيره. ناهيك عن أسماء الأمراض أو أعراضها: كالصداع، والكابوس، والصرع، والتشنج، واللقوة، والرعدة، والاختلاج، والسرطان، والسلاق، والشرنقة، والشرناق، والخانوق، والذبحة، والربو، وذات الجنب، وذات الرئة، والجهر، والضمور، والخفقان، والغثيان، واليرقان، والاستسقاء، والديبيلة، والاسهال، والزجير، والسحج، والسدد، والهيضة، والبواسير، ونحو ذلك.. مما لا يمكن حصره.

ومن اوصاف الامراض انواع الحميات: كالمزمنة، والحادة، والمختلطة، والغب، والمطبقة، والربع، والدق، وغيرها.. غير الالفاظ التشريحية: كأسماء الاوعية الدموية، ورطوبات العين، وسائر الاعضاء الباطنة التي لم يكن العرب يعرفونها.

ولاكثر الالفاظ الطبية العربية معان لغوية، عرفها العرب قبل عصر العلم.. فلما احتاجوا الى المعاني الجديدة استعملوا من تلك الالفاظ ما يقرب معناه من المعنى المقصود.

2- الالفاظ الرياضية

ويقال نحو ذلك في الالفاظ الكيماوية، والرياضية، والفلكية، وسائر العلوم الطبيعية، مما يضيق هذا المقام عن استيفائه، وقد يلزم لاصطلاحات كل علم كتاب بذاته.

فمن امثلة الالفاظ الفلكية، اكثر اسماء الابراج، والافلاك، والمصطلحات الفلكية، والازياج، وما يلحق ذلك، كالرصد، والتعديل، والتقويم، والخسوف، والكسوف.

ومن الالفاظ الرياضية في الهندسة، والحساب، والجبر، ما لا يحصى، كالمماس، والمخروط، والمثلث، والمربع، وغير ذلك.

3- الالفاظ الفلسفية والمنطقية والكلامية

واما الفلسفة والمنطق، فاصطلاحاتهما تفوق الحصر.. ومن العلوم التي اقتضاها التمدن الاسلامي بعد نقل الفلسفة والمنطق الى لسان العرب، علم الكلام والتصوف مع التوسع في الفقه والاصول. وقد كان لهذه العلوم تاثير كبير في اللغة العربية، فتنوعت الفاظها، وحدث فيها الفاظا جديدة:

وذلك كقولهم: الكون، والظهور، والقدم، والحدوث، والاثبات، والنفي، والحركة، والسكون، والمماس، والمباينة، والوجود، والعدم، والطفرة، والاجسام، والاعراض، والتعديل، والتحرير، والمصاف، من اصطلاحات علم الكلام. والهاجس، والمريد، والمراد، والسالك، والمسافر، والسطح، والقطب، والهيبة، والانس، والبقاء، والعناء، والشاهد، والفترة، والمجاهدة، من اصطلاحات التصوف.

وقد تكاثرت الاصطلاحات الكلامية والصوفية والفقهية والاصولية حتى صارت تعد بالالوف، فاضطروا الى وضع المعجمات الخاصة لتفسيرها، وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم.

ومن اشهر تلك المعجمات كتاب التعريفات لالجراني في نيف ومائة صفحة وكشاف اصطلاحات الفنون لالتهانوي في نحو ألفي صفحة كبيرة و كليات ابي البقاء في اربعمائة صفحة واصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية وغيرها. فاذا ذكروا لفظا أرادوا معناه اللغوي، ثم معناه الاصطلاحي في الفقه او الكلام او التصوف او الاصول مع ما يناسب ذلك من المعاني الرياضية او الطبيعية او النحوية.. وقد يغفلون المعنى اللغوي على الاطلاق.

فيقول الجرجاني في لفظ "القياس" مثلاً: "القياس في اللغة عبارة عن التقدير، يقال: قست النعل إذ قدرته وسويته، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره، وفي الشريعة عبارة عن المعنى المستنبط من النص لتعدية الحكم من النصوص عليه إلى غيره، وهو الجمع بين الأصل والفرع في الحكم. وفي المنطق قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر، كقولنا العالم متغير وكل متغير حادث، فانه قول مركب من قضيتين.. إذا سلمنا لزم عنهما لذاتهما العالم حادث هذا عند المنطقيين. وعند أهل الأصول، القياس ابانة مثل حكم المذكورين بمثل علته في الآخر واختيار لفظ الابانة دون الاثبات، لان القياس مظهر للحكم لا مثبت، وذكر مثل هذا الحكم ومثل العلة احتراز عن لزوم القول بانتقال الاوصاف واختيار لفظ المذكورين ليشمل القياس بين الموجودين والمعدومين" ثم ميز الجرجاني بين انواع القياس بالفاظ تلحق به، كالقياس الجلي والخفي والاستثنائي والاقترابي وقياس المساواة، لكل منها معنى اصطلاحي خاص.

وفي الاصطلاحات الصوفية: "الهاجس" يعبرون به عن خاطر الاول، وهو خاطر الرباني، وهو لا يخطئ ابدا.. وقد يسميه سهل السبب الاول ونقر خاطر، فاذا تحقق في النفس سموه ارادة، فاذا تردد الثالثة سموه همة، وفي الرابعة سموه عزيمة، وعند التوجه إلى القلب ان كان خاطر فعل سموه قصدا، ومع الشروع في الفعل سموه نية. و"المريد" هو التجرد عن ارادته، وقال ابو حامد: "هو الذي فتح له باب الاسماء ودخل في جملة المتوصلين إلى الله بالاسم. و"المراد" عبارة عن المجذوب عن ارادته مع تهيه الامور له. فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة. و"السالك" هو الذي مشى على المقامات بحاله، لا نعلمه فكان العلم له عينا. و"المسافر" هو الذي سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات.. فعبّر عن عدوة الدنيا إلى عدوة القصوى. و"السفر" عبارة عن القلب، اذا اخذ في التوجه إلى الحق تعالى بالذكر.. وقس على ذلك.

الألفاظ العلمية الاعجمية

حينما قام العرب بتعريب العلوم، نقلوا من اصطلاحاتها إلى لسانهم ما استطاعوا نقله، ونوّعوا الالفاظ على مقتضى المراء كما تقدم. وما لم يستطيعوا تعريبه، نقلوه بلفظه إلى لسانهم.. وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير، والأمراض، أو الأدوات، أو المصنوعات التي لم يكن لها شبيه في بلادهم.

فما اقتبسوه من أسماء العقاقير: الافسن تبن، والبقوننس، والزيزفون، والسقمونيا، والقنطاريون، والمصطكي من اللغة اليونانية.

والبابونج، والبورق، والبنج، وخيار شمير، والراتينج، والزرجون، والزرنخ، والزاج، والسرقين، والاسفيداج، والشاهترج، والشيرج، والمرداسنج من اللغة الفارسية.

ومن أسماء الامراض ونحوها من الاستعمالات الطبية: القولنج، والترياق، والكيروس، والكيلوس، وقيفال، ولومان، وملنخوليا من اليونانية...وسرسام، ومارستان من الفارسية.

ومن المصنوعات والادوات: الاصطربلاب، والقيراط، والانيق، والصابون من اليونانية.. والبركار، والبوتقة، والجنزار، والدسكرة، والاسطوانة من الفارسية.

ومن الاصطلاحات الفلسفية ونحوها: الهيولي، والاسطقس، والفلسفة، والطلسم، والمغنطيس، والاقليم، والقاموس، والقانون من اليونانية.. غير ما اقتبسوه من اللغة الهندية، وأكثره من أسماء العقاقير ونحوها.

فترى مما تقدّم ان أهل تلك النهضة لم يكونوا يستكفون من اقتباس الالفاظ الاعجمية، ولم يتعبدوا انفسهم في وضع الفاظ عربية لتأدية المعاني التي نقلوها عن الاعاجم.. بل كانوا كثيرا ما يستخدمون للمعنى الواحد لفظين من لغتين أعجميتين. فالسرسام مثلا اسم فارسي لورم دماغ حجاب الدماغ، استعمله العرب للدلالة على هذا المرض.. ولما ترجموا الطب من لغة اليونان استخدموا اسمه اليوناني وهو "قراينطس" ولو استكفوا من استخدام الالفاظ الاعجمية لاستغنوا عن اللفظين جميعا.

التركيب الأعجمية في اللغة العربية

هذا مطلب بعيد الاطراف، يستغرق درسا طويلا وبحثا عميقا، لا يأذن بهما المقام.. فنكتفي بالتنبيه إليه، ونأتي ببعض الامثلة لتأيد قولنا. لكننا بالقياس على ما دخل اللغة العربية من التراكيب الاجنبية في أثناء نهضتنا الاخيرة، بما نقلناه من علوم الافرنج إلى لساننا، نقطع بحدوث مثل ذلك في النهضة العباسية، ونقلة العلم يومئذ من غير أهل اللسان العربي.

على اننا لو فحصنا لغة ذلك العصر، وقابلنا بين عبارة كتب الطب، والفلسفة. وعبارة كتب الادب، لرأينا الفرق بينهما واضحا. واذا دققنا

النظر في سبب ذلك الفرق رأينا عبارة اصحاب الفلسفة تمتاز بأمور، هي سبب ضعفها وركاكتها منها:

1. استخدام فعل الكون بكثرة على نحو ما يستعمله هلال اللغات الافرنجية .
2. كثرة الجمل المعترضة الشائعة عندهم .
3. الاكثار من استعمال الفعل المجهول .
4. استعمال ضمير الغائب "هو" بين المبتدأ والخبر حيث يمكن الاستغناء عنه .
5. ادخال الالف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات، كقولهم رحاني، نفساني، وباقلاني، ونحو ذلك، مما هو مألوف في اللغات الآرية ولا يستحسن في اللسان العربي .

ومن التعبيرات التي اقتبسها العرب من اللغة اليونانية، ما لم يكن لهم مندوحة عنها ولا بأس منها:

1. تركيب الالفاظ مع لا النافية، وادخال "أل" التعريف عليها، كقولهم اللانهاية، واللادارية، واللاضرورية .
 2. صوغ الاسم من الحروف او الضمير، مثل قولهم اللمية، والكيفية، والكمية، والهوية .
 3. نقل الالفاظ من الوصفية الى الاسمية، كقولهم المائية، والمنضجة، والخاصة .
- ومن هذا القبيل، اقتباساتهم بعض التعبيرات الفارسية الادارية مثل قولهم "صاحب الشرطة" و"صاحب السنتار" وهو تعبير فارسي.

الألفاظ العامة

كل ما ذكرناه من أمثلة نمو اللغة العربية في العصر الاسلامي، انما هو قاصر على تفرع ألفاظها وتجدها، بما اقتضاه الشرع، والعلم، والفلسفة، والادارة، والسياسة. وهناك تغييرات اخرى، نتجت عما طرأ على الآداب الاجتماعية من التغيير، فضلا عن التجارة والصناعة، وما اقتضاه كل منها من تنوع الالفاظ العربية او اقتباس الالفاظ الاجنبية، كأسماء الانغام الموسيقية، والألحان وفروعها.. عدا ما اقتبسه المسلمون من العادات الاجنبية، وما يتبع ذلك من أسماء الملابس، والأطعمة، والاحتفالات مما تغني شهرته عن ايراده.

وهناك تغييرات اخرى اصابها الفاض اللغة بغير داع من الدواعي التي قدمناها، بل هي جرت في ذلك على ناموس الارتقاء العام القاضي على الاحياء بالتجدد والتنوع والتفرع، لاسباب بعضها معلوم، وبعضها غير معلوم. والغالب في هذا التنوع ان يكون بالانتقال من معنى كلي الى معنى جزئي، او من معنى الى ما يشبهه، او يتعلق به، مما يعبرون عنه بالتوليد.. فالالفاظ المولدة هي التي احداثها المولّدون بعد ان دُوّنت اللغة وضبطت الفاظها في اوائل الاسلام. والالفاظ المولدة أكثر كثيرا مما يظن اللغويون، بل هي تتولد على الدوام بلا انقطاع. وكل ما تقدم ذكره من الالفاظ الاسلامية، والادارية، والعلمية، والتجارية، انما هو من قبيل المولد، لكنهم قلما يسمونها مولدة.. وعندهم ان القاموس هو الحكم الفصل في العربي والمولد العامي، فما لا يذكره القاموس بين الالفاظ العربية عدوه عاميا او مولدا وحظروا استعماله.

ولكن القاموس وحده لا يكفي للحكم في ذلك، لأنه لم يتضمن كل ما تناقلته ألسنة البلغاء او تداولته أقلام الكتاب، ولا كل ما نطقت به العرب.. وقد فطن الى ذلك أئمة اللغة في العصر الاسلامي وما بعده ونبهوا اليه.. قال ابن فارس: "ان لغة العرب لم تنته اليها بكليتها، وان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير" وقال السيوطي: "ومع كثرة ما في القاموس من النوادر والشوارد، فقد فاتته اشياء ظفرت بها في اثناء مطالعتي لكتب اللغة، حتى هممت ان أجمعها في جزء مذيلا عليه."

فعدم ورود اللفظ في القاموس لا يدل دائما على أنه عامي او ضعيف.. ناهيك بألفاظ كثيرة، اكتسبت بالحضارة معاني جديدة لم يدونها القاموس، لأن الأئمة اعتبروها من قبيل الالفاظ العامية.. ولكن الكتاب استعملوها، وفيهم المشاهير المشهود لهم بالبلاغة وسلامة الذوق.

فالأصل في معنى "البيت" في القاموس البناء المعروف، والشرف، والشريف. فكأما يقولون بيت بني تميم اي شرفهم، وفلان بيت قومه أي شريفهم، وبيت القصيدة احسن أبياتها قال "والعامة تقول هو من بيت فلان، أي من عائلته" مع أن استعمال البيت بمعنى العائلة مما تداولته أقلام البلغاء وفي مقدمتهم ابن خلدون، وقد عرفه بقوله: "البيت ان يعد الرجل في آباءه أشرافا مذكورين تكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة في اهل جلدته" وقال: "وكان بنو اسرائيل من اعظم بيوت العالم."

و"الحضارة" الاصل في معناها سكني المدن اي ضد البداوة.. فلما تحضر العرب، وكثر الترف في مدنهم، صار معنى الحضارة عندهم "التفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والفرش وغيرها."

ويقال نحو ذلك في "العمران" فان اصل معناها من عمّر الرجل في المكان سكن فيه، ثم صارت تدل على معنى المدنية والحضارة. وهذا ما اصاب لفظ "التمدن" فانها من تمدن الرجل، اي تخلق بأخلاق اهل المدن، ثم دلوا بها على مثل ما تدل عليه الحضارة او العمران او المدنية. وقد استعملوا "ركاب السلطان" بمعنى موكبه، ولا تجد لهذه اللفظة هذا المعنى في القاموس، ولكن الكتاب استعملوها له. وكذلك "كافة" فقد نبه القاموس انها تستعمل في مثل: "جاء الناس كافة" اي كلهم، وانها لا تدخل عليها أُل التعريف ولا تضاف. ولكن بلغاء الكتاب قد استعملوها في الحاليين مرارا: قال ابن خلدون: "لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل كافة على دين الاسلام". وقال صاحب أدب الدنيا والدين: "وفرض جميعه على كافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على كافة". وقال ابو اسحق الصاحبى الكاتب الشهير من نسخة عهد كتبها عن المطيع لله الى الغضنفر ابن ناصر الدولة: "أمره ان يعرف لركن الدولة ابي علي وعز الدولة ابي منصور مولاي امير المؤمنين تولاها الله حق منزلتهما من امير المؤمنين وغنائهما عن كافة المسلمين". ومن الالفاظ التي استعملها الكتاب القدماء، واقتدى بها كتابنا.. مع ان استعمالها يخالف قول القاموس، تخصيص "القينة" بمعنى المغنية، والاصل اطلاقها على الامة مغنية كانت او غير مغنية.

و"المقراض" و"المقص" فان الاصل في استعمالها بالمتنى، لأنهما مقراضان ومقصان، أي شفرتان. فيقال: "قرضته بالمقراضين" و"قصصته بالمقصين".. وقلما نرى بين الكتاب القدماء او المحدثين من يستعملهما كذلك، بل هم يقولون: قرضته بالمقراض، وقصصته بالمقص.

والاصل في "المأتم" الاجتماع على العموم، ثم خصصوه بالاجتماع في مجتمع النياحة.

و"أرق" في الاصل للسهر في مكروه، ثم صار عاما.

ومن الاستعمالات الجارية على اقلام الكتاب، وهي خطأ باعتبار القواعد المدونة، قولهم: "بدأ به أولا" والصواب: "بدأ به أول" مثل قولهم قبل، وحكمهما واحد.

ومن هذا القبيل، جمع حاجة على حوائج، وعادة على عوائد، وهما شائعتان عند الكتاب مع مخالفتها للقاعدة.

وكذلك جمع ريح على أرياح خطأ، ولكن الحريري استعملها ومثله جمع أرض على أراضى وجمع الجواب على أجوبة.

وقولهم: "شفعه بثالث" غلط، اذ لا يُقال شفعه الا للثاني من الشفع.

والاصل في "القافلة" الرفقة الراجعة، فصارت تطلق على الرفقة المسافرين ذهابا وايابا.

وقس على ذلك تنوعات كثيرة يعدها القاموس خطأ، وقد نبه الى خطأها فطاحل جماعة من فطاحل البلغاء، وألفوا في تصحيحها الكتب. وأشهر ما ألفوه كتاب دعوة الغواص في أوام الخواص لابي محمد الحريري صاحب المقامات، وقد شرحها وعلق عليها كثيرون، ومنهم ابن بيري بن عبد الجبار النحوي المتوفي عام 582هـ، وأبو عبد الله المعروف بحجة الدين الصقلي المتوفى عام 555هـ، وابن المظفر المكي المتوفى عام 568هـ، وابن خشاب النحوي، وابو بكر الانصاري، وأحمد الخفاجي المصري، وغيرهم.. وكل من هؤلاء اضاف الى ذلك الكتاب ألفاظا من هذا القبيل فاتت صاحب الدرة، ونبهوا الى خطأ استعمالها.. ومع ذلك فالتبيعة غلبت على آرائهم وأقوالهم لأن ما عدوه خطأ، انما هو نتائج النواميس الطبيعية التي لا بد منها.. سنة الله في خلقه.

الألفاظ النصرانية واليهودية

ريد بالالفاظ النصرانية واليهودية، ما دخل اللغة العربية من الاصطلاحات الدينية لأهل الكتاب، وخاصة بعد ان نُقلت التوراة، والانجيل الى اللسان العربي.. فقد كانت لغة الدين المسيحي قبل الاسلام السريانية، واليونانية، والقبطية.. ولغة اليهود العبرانية، على تفاوت في استخدام الواحدة دون الأخرى، واختلاف ذلك باختلاف العصور والاماكن.

فلما جاء الاسلام، وانتشر المسلمون في العراق، والشام، ومصر، وتسلطت اللغة العربية، وأخذت تلك اللغات تنتهقر، حتى توارت.. ولم يبق منها الا آثار قليلة في بعض الطقوس، فالمسيحيون أصبحت العربية لغتهم، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير بها عن كل اصطلاحاتهم الدينية، ولما ترجموا التوراة والانجيل الى العربية، أبقوا كثيرا من الالفاظ الدينية على لفظها ومعناها.. على ان كثيرا من الالفاظ النصرانية دخلت اللغة العربية في العصر الجاهلي، كالفسيح، والدير، والتوراة، والانجيل، وغيرها.

الالفاظ الدينية والسريانية

واليك اشهر الالفاظ النصرانية واليهودية التي دخلت اللغة العربية وأصلها سرياني، او كلداني، مرتبة على حروف الهجاء، وقد يشنّبه بعضها بالاصل العبراني، او ربما كان بعضها عبرانيا.. وقد وصل العربية على يد السريان.

آب بالمد لاسم الله	بحران	تفشرة	جهنم
عز وجل	برخ	توبة	حانوت
اسطوانة	برنساء	توراة	خبر
أمين	ترعة	تيمن	دين بمعنى حكم
أنبا	تلميذ	جالوت	دير
باعوث	تنور	جبروت	رشم الطفل
زياح	صاح	قداس	مزمور
زيق	صراط	قربان	مشحة
ساعور	صلوت	قسيس	ملكوت
تسبيح	طاغوت	قيامة	ميمر
سيط	طوبى	كاروز	نلسوت
سعانين	طور	كرّاس	ناطور
سفر	طوفان	كنيسة	ناقوس
سفسير	عزاب	كهنوت	نياحة
سليح	عروبة	كورة	يم
سنور	عماد	لاهور	يوناني
شبين	غقارة	مار	
شمّاس	فصح	مرعزا	

فضلا عن أسماء الشهور الشمسية مثل: كانون، وتشرين، وأيلول. ومن الألفاظ النصرانية، ماهو من أصل يوناني دخل العربية إما رأسا أو بواسطة اللغة السريانية، مثل قولهم: انجيل، وهرطقة، وأسقف، ومطران، وطقس، وطغمة، وقس على ذلك..

التراكيب او العبارات النصرانية

نريد بهذه التراكيب ما دخل العربية من اساليب اللغة السريانية، والعبرانية، واليونانية، وخاصة ترجمة التوراة، وهي كثيرة تأتي بأمثلة منها :

فمن التراكيب العبرانية قولهم:

- قال في قلبه (: أي تفكّر).

- واستراح الله من جميع عمله الذي عمله .
- من جميع شجر الجنة تأكل أكلا... واذا أكلت موتا تموت .
- وحدث بعد أيام أن قام قايين قدّم أثمارا.. وحدث اذ كانا في الحقل ان قايين قام على اخيه..الخ .
- فيكون اذا رآك المصريون انهم يقولون: هذه امرأته .
- صنع له خيرا وصنع له شرا (: بدل أحسن اليه أو أساء .)
- ورفع عينيه ونظر .
- وصار كلام الرب الى ابرام قائلا .
- قد وجد نعمة في عينيه .
- حسن ذلك في عيني الله.. وقبح ذلك في عيني الله .
- فتح فاه وعلمهم .

ومن التراكيب اليونانية قولهم:

- هكذا مكتوب بالنبي .
- وهي تلك الايام جاء يوحنا المعمدان .
- ثم أصعد يسوع الى البرية من الروح ليجرب من ابليس .
- وفيما هو خارج من الطريق ركض واحد وجثا له .
- تكلم الرب بغم أنبيائه .

وربما كان في بعض هذه التراكيب مسحة غير يونانية لاعتماد اكثر مترجمي الاناجيل على بعض ترجماتها في اللغات الاخرى فضلا عن الاصل اليوناني.. على اننا لا نعد هذه التراكيب مما يستحسن اقتباسه والنسج على منواله، وانما هو خاص في لغة الكتاب المقدس أدخله المترجمون لاضطرارهم الى المحافظة على النص الحرفي.

الألفاظ الدخيلة والمولدة في عصر التدهور

ما برحت اللغة العربية منذ الفتح الاسلامي، وهي تكتسب الالفاظ الاعجمية والتراكيب الاجنبية كما رأيت، مما دخلها من الالفاظ الادارية والعلمية في العصر العباسي وغيره حتى في العصر الجاهلي.. ولكن المراد بالالفاظ الاعجمية في هذا الفصل، ما خالط اللغة من الالفاظ والتراكيب الاعجمية، بعد انقضاء دولة العرب، وافضاء الملك الى السلاطين والأمراء من الفرس، والديلم، والترك، والاكرد، والجرس، في العراق، وفارس، والشام، ومصر وغيرها.

لان اللغة العربية ما زالت سائدة في تلك الدول، على اختلاف نزعاتها ولغاتها، وكانت في اكثرها هي اللغة الرسمية التي تتخاطب بها الحكومات. ولم تكن الدول الاعجمية اقل عناية بأداب اللغة العربية من الدول العربية، بل كانوا اكثر اهتماما منهم في انشاء المدارس، وتعليم الفقراء، واستنساخ الكتب، ولكن حال العمران على اجماله يومئذ قضى على اللغة بالانحطاط، فدخلها التكلف والتجمل والتصنع، وتكاثرت فيها الفاظ التفخيم والتبجيل.. وشاع التسجيع في الانشاء، وحدث في تلك الدول وظائف جديدة، وتنوّعت الوظائف القديمة، فحدثت في اللغة ألفاظ جديدة، او تنوّعت الالفاظ القديمة للتعبير عن تلك المستحدثات.

السجع والتفخيم

فالتفخيم والتبجيل والتمليق، اقتضت العناية في تنميق العبارات وتحشيتها، وكان السجع قد اشتهر على اقلام الكتاب، فبالغوا في تنميقة وتوسيعه. والتزام السجع، يدعو الى استخدام الالفاظ الوحشية المهجورة، حتى يصير الى ما تنفر منه الاسماع.

والسجع حسن اذا جاء عفوا بلا تكلف، لا ان يتعمده المسجعون بالتعمّل والتصنع حتى يمجّه الذوق، وينفر منه السمع. وأصبح التسجيع في ذلك العصر كثيرا، يتفاخر به أكبر الكتاب، والناس يومئذ يعدّون ذلك مستحسنا، ونحن نراه قبيحا ولو كان قائله من أشهر الكتبة، كالعماد الاصفهاني فانه تعمّد التسجيع في كلامه عن فتح بيت المقدس، في كتابه المسمّى الفتح القسي، وهو أشهر كتبه. واليك عبارة منه تدلّ على باقيه، وهي قوله في رحيل صلاح الدين للفتح: "رحل من عسقلان للقدس طالبا. وبالعزم غالبا. وللنصر مصاحبا. ولذيل العز ساحبا. وقد أصحب ريّض مناه. وأخضب روض غناه. وأصبح رائج الرجاء. أرج الأرجاء. سيّب العُرف. طيب العُرف. طاهر اليد.

قاهر الأيد. سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء. وملاً فأفاض الآلاء. وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق. وكأنما أعاد العجاج رَأَد الضحى جنح الغسق. فالأرض شاكية من أجحاف الجحافل. والسماء حاضية بأقساط القساطل الخ."

فترى من نص العبارة، انهم كانوا يستعينون بالتسجيع للإطناب على ما اقتضاه حال تلك الايام وتلك الدول من التفخيم، لان في التسجيع رنة توهم الإطناب والإطراء.. ولهذا السبب أيضا كثرت المترادفات في نعوت التفخيم، فمن أمثلة ذلك ما قاله المرادي في تعريب الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه أعيان القرن الثاني عشر للهجرة قال:

"هو استاذ الاساتذة، وجهيد الجهابذة الولي العارف ينبوع المعارف، الامام الوحيد، والهمام الفريد، العالم العلامة، والحجة الفهامة، البحر الكبير، والحبر الشهير، شيخ الاسلام صدر الأئمة الأعلام، قطب الأقطاب الذي لم تتجب بمثله الأحقاب، العارف بربه، والفائز بقربه وحبه، ذو الكرامات الظاهرة، والمكاشفات الباهرة.. الخ."

ولم يكن هذا التطويل قاصرا في وصف رجال الفضل، كالنابلسي، بل كان شاملا كل انسان.

وما زالت الركاقة تتوالى على الانشاء العربي، حتى بلغت منتهاها في أول القرن الماضي، وكثرت الالفاظ العامية الدخيلة.. فمن أمثلة ذلك ما جاء في الجبرتي في أثناء كلامه عن حرب الفرنسيين وهي قوله: "وفي الثلاثة حضر هجان وباش سراجين، ابراهيم بك وأخير أن الجماعة عزموا على الارتحال والرجوع، وفك الجسر، فعمل الباشا ديوانا الخ". وقوله: "وفي ذلك اليوم وصل ططري من الديار الرومية وعلى يده مرسومات، فعملوا في صبحها ديوانا وقرئت المرسومات الخ."

الالفاظ المولدة في عصر التدهور

هذا ما يقال من حيث التراكيب، وأما الالفاظ فقد كثر فيها الدخيل والمولد، وأكثرها في الالفاظ الادارية المتعلقة بالحكومة ونظمها وما يتعلق بها.

واليك أمثلة من الالفاظ المولدة في عصر التدهور مما يختص بالادارة، وقد وضعنا بإزاء كل لفظ ما صار اليه معناه في ذلك العصر: النائب: القائم مقام السلطان.

الساقي: المتولي مدّ السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب.

المشرف: متولي أمر المطبخ.

ملك الامراء: من الالقاب التي اصطلحوا عليها لنواب السلطان.

رأس النوبة: الذي يتحدث على ممالك السلطان.

أمير المجلس: الذي يتولى امر مجلس السلطان.

وقس على ذلك سائر الرتب المحدثه في الدولة التركية، والكردية، كأمر السلاخ، ومقدم الممالك، وأمير علم، ونقيب الجيش، والعامل.. وهذا غير العامل في الدولة العربية فانه في الدولة التركية يراد به منظم الحسابات.. ومثلها الصيرفي، وكاتب السر، والناظر.. وهو خاص في الاموال، وصاحب الديوان، والشاهد، وغيرها.

ومن هذا القبيل الالفاظ او النعوت التي تكتب في المكاتبات والولايات، واليك امثلة منها:

الجانب: من القاب ولاية العهد بالخلافة ومن في معناهم، كامام الزيدية اليمني في مكاتباته عن الابواب السلطانية.

المقام: هو خاص بالملوك. المقر: يختص بكبار الامراء، وأعيان الوزراء، وكتاب الشرف: كناظر الخاص، وناظر الجيش، وكاتب الدست.

الجناح: من ألقاب أرباب السيوف والاقلام جميعا.. فيما يكتب به عن السلطان وغيره من النواب ومن في معناهم.

المجلس: هو من ألقاب أرباب السيوف والاقلام ممن لم يؤهل لرتبة الجناح.

مجلس (بلا أل): يضاف الى ما بعده، فاذا قيل مجلس الامير كان لقب أرباب السيوف على اختلاف طبقاتهم، واذا قيل مجلس القاضي كان مختصا بأرباب الأقالام. واذا قيل مجلس الشيخ كان لقب الصوفية وأهل الصلاح. واذا قيل مجلس الصدر كان للتجار وأرباب

الصنائع.

الحضرة: ويراد بها حضرة صاحب اللقب، وهي من الألقاب القديمة التي كانت تستعمل في مكاتبات الخلفاء.. وكان يقال فيها الحضرة العالية والحضرة السامية، ثم صارت تستعمل في العصر الذي نحن فيه للمخاطبة من الأبواب السلطانية الى بعض الملوك او الاعيان. هذه امثلة قليلة مما تولد في اللغة العربية من الالفاظ التي اقتضاها عصر الدول الاعجمية، وأكثرها كان له معنى وتنوع على ما اقتضته الاحوال عملا بناموس الارتقاء.

الألفاظ الدخيلة في عصر التدهور

وأما الالفاظ الدخيلة، ففيها الفارسي، والتركي، والكردي.. وكلها ادارية من اصطلاحات الحكومة، واليك أمثلة منها: الاستادار: يتولى قبض مال السلطان او الامير وصرفه ويمتثل أوامره فيه.

الجوكاندار: لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة.

الطبردار: الذي يحمل الطبر.

سنجدار: يحمل السنجق وهو العلم.

البندقدار: وهو يحمل جراوة البندق خلف السلطان او الامير.

الجمدار: الذي يتصدى لالباس السلطان او الامير ثيابه وأصله جامادار.

البشمقدار: يعمل نعل السلطان.

المهمندار: يهتم بالرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم الضيافة.

الزنان دار: وهو الزمام دار يتحدث مع السلطان، وهو من الخدم او الخصيان.

الجاشنكر: يتصدى لذوقان المأكول خوف التسمم.

السراخور: يتحدث عن علف الدواب.

أمير اخور: صاحب الاصطبل.

أمير جاندار: يستأذن على الامير وغيره في أيام الموابك.

وقس على ذلك ما دخل اللغة في ذلك العصر من الاصطلاحات العسكرية والمالية والتجارية، ومن هذا القبيل الاصطلاحات العسكرية والادارية في الدولة العثمانية، وبعضها تركي، او فارسي صرف، وبعضها مركب من التركي، او الفارسي، والعربي: كالجاويش، واليوزباشي، والبيكاشي، والسرعسكر، والمابين، والسركي، والباور، وأميرالاي، والاوردي، والآلاي، والطابور، والباشا، والبيك، والأغا، ومنها ما هو عربي بصيغة تركية: كالمكتوبجي، والمابنجي، والمحاسبجي، والباشكاتب، والسلامك، وماينتهي بلفظ "خانة" كالرصدخانة، والكتبخانة، او بلفظ "دار" كالدفتردار، والخزندار.. ناهيك بالالفاظ العربية المولدة التي اكتسبت معاني جديدة في الدولة العثمانية: كالناظر، والمتصرف، والمحتسب، والتابعية، والمسئولية، والصدر الاعظم، والمدعي عمومي، والقائمقام، ونحو ذلك وهو كثير جدا، وسيأتي ذكر بعضه مفصلا في أثناء كلامنا على النهضة العلمية الاخيرة.

النهضة العلمية الأخيرة

لم يمر على اللغة العربية عصر أثر في ألفاظها وتراكيبها تأثير النهضة الاخيرة في أواسط القرن الماضي، لأنها جاءت على غرة دفعة واحدة.. فانهالت فيها العلوم انهيال السيل، وفيها الطب، والطبيعات، والرياضيات، والعقليات وفروعها، ولم تترك للناس فرصة للبحث عما تحتاج اليه تلك العلوم من الالفاظ الاصطلاحية مما وضعه العرب او اقتبسوه في نهضتهم الماضية ولا لوضع الاوضاع الجديدة. والسبب في ذلك ان الذين اشتغلوا في ميادين العلوم الحديثة عند اول دخولها مصر والشام في أواسط القرن الماضي، لم يكونوا على سعة من علم اللغة... فلما ترجموا تلك العلوم الى اللغة العربية لم يهتدوا الى مصطلحاتها القديمة، او اهتدوا الى بعضها ووضعوا للبعض

الآخر ألفاظاً لا تنطبق على المراد بها تمام الانطباق.. لكنها صُقلت بتوالي الاعوام وصارت تدل على المراد، كما اصاب أمثالها في اثناء النهضة العباسية وغيرها.

فلما انقضت تلك البغته، وتكاثرت المدارس ونشأ الكتاب وعلماء اللغة، عادوا الى النظر فيما دخل اللغة من المصطلحات العلمية، او الادارية الجديدة، وقلما استطاعوا تبديل شيء منه لتأصله وشيوعه في الكتب والجرائد والأندية وغيرها.. على انهم لم يعدموا وسيلة في اصلاح الانشاء والرجوع بعباراتهم الى نحو ما كانت عليه في صدر الدولة العربية، لأنهم تحدّوا فطاحل الكتاب في تلك العصور مع مراعاة الذوق والسهولة.. فنبح بيننا كتاب لا يفضلهم ابن المقفع، ولا ابن خلدون، ولا غيرهما من صفوة الكتاب وعمدة المنشئين في شيء.. وقد أغفلوا السجع البارد، وقللوا من الاطناب وأبطلوا المترادف.. وهو عاملون على تنقية اللغة مما خالطها من الاجماش والادران، وما أصابها من الضعف في عصر الانحطاط.. واذا تدبّرت لغة الكتاب والمنشئين في أول هذه النهضة، وقابلتها بلغة كتابنا اليوم رأيت الفرق كبيراً، وتوقّعت ان تعود الى اسمى ما بلغت من درجات الكمال في عصر زهوها وشبابها.

على اننا لا نظنهم مع ذلك قادرين على تنقيتها مما دخلها من الالفاظ والتراكيب الاعجمية، او مما تولّد فيها من الالفاظ العربية الجديدة على ما اقتضاه التمدن الحديث من العادات الجديدة والآداب الجديدة والعلوم الجديدة. وقد دثر من اللغة كثير من الاصطلاحات القديمة، وقام مقامها مصطلحات جديدة.. شأن الكائنات الحية الخاضعة لناموس الارتقاء.

فالتعبير الذي أصاب اللغة العربية في النهضة الاخيرة، قد أصاب ألفاظها وتراكيبها.. وبعضه دخلها من اللغات الاجنبية، والبعض الآخر تولّد فيها بالتنوع والتفرع.. وللاحاطة بالموضوع نقسم الكلام فيه الى قسمين: نبحث في القسم الاول عن الدخيل، وفي القسم الثاني عن المولّد.

الدخيل

يقسم الدخيل في اللغة العربية في أثناء هذه النهضة الى أربعة أقسام: (أ) الالفاظ الادارية، (ب) الالفاظ التجارية، (ج) الالفاظ العلمية، (د) التراكيب الاعجمية.

الالفاظ الادارية الدخيلة

اكثر هذه الالفاظ من مصطلحات الدولة العلية، وأكثرها تركي، وفارسي، وقد ذكرنا أمثلة منها في كلامنا عما دخل اللغة في عصر التدهور.. وبعض تلك الالفاظ أخذ من اللغات الافرنجية، وخاصة اللغتين الايطالية والفرنسية، وهي:

الالفاظ الادارية التركية	لفظها الاصلي	معناها
سنجق	سنجاق	راية
طابور	طابور	كتيبة
بلک	بلوک	سرب
الاي	آلي	فرقة
اوردي	اوردو	جيش
جفلتک	جفلتک	مزرعة
اورنيک	اورنک	نموذج
اورطة	اوردي	جيش

الألفاظ الإدارية التركية

ويلحق بالألفاظ التركية كل ما تركب تركيبا، ولو كان عربيا أو فارسيا. والغالب ان يكون ذلك التركيب مع "جي" للنسبة أو "باش" (رأس) كقولهم: مكتوبجي، ومخزنجي، واجزاجي، وتمرجي، وهذه مركبة من "تيمار" بالفارسية (سياسة المرضي) و"جي". وباشكاتب، وباشمهندس، (مهندس اسم فاعل من لفظ فارسي الاصل "اندازه" معناه التقدير)، وحكيمباشي. وقد يركب من الاثنين معا مثل: مخزنجي باشي، ومكتوبجي باشي، وقس عليه.

الالفاظ الادارية الفارسية

الالفاظ الادارية الفارسية	لفظها الاصلي	معناها
ياور	ياور	معاون
تمغة	تمغا	طوابع رسمية
بندر	بندر	مرفأ
باره	باره	قطعة
سواري	سواره	فارس
سراي	سراي	بيت

ويلحق بالالفاظ الادارية الفارسية ما يرگب من الالفاظ مع "دار" (صاحب) او "خانة" (بيت) في آخر الكلمة او "سر" (رأس) في أولها كقولهم: حكمدار، وبيرقدار، دفتردار، وكتبخانه، وخسته خانه، وأجزخانه، وسردار، وسر عسكر، وسر تشریفاتى، وقس على ذلك. وقد تقدم ذكر بعضها في كلامنا عن عصر التدهور.

الالفاظ الادارية الفرنسية

معناها	لفظها الاصلي	الالفاظ الادارية الفرنسية
صاحب الامر	Commandant	قومندان
قائد	Général	جنرال
وكيل	Consul	قنصل
ضابطة	Police	بوليس
كاتم السر	Secrétaire	سكرتير
مجلس الأعيان	Parlement	برلمان
مندوب	Commissaire	قومسير

الألفاظ الإدارية الإيطالية

الافاظ الادارية الايطالية	لفظها الاصلي	معناها
بوسطة	Posta	البريد
يونيفورما	Uniforma	بدلة رسمية
ورديان	Guardiano	حارس
اسكله	Scala	سلم
ديكريتو	Decreto	أمر عال
باطنطة	Patenta	رخصة

الفاظ ادارية من لغات اخرى

وهناك ألفاظ ادارية مقتبسة من لغات أخرى، كلفظ "الغرش" فانه معرّب Groschen بالألمانية و"امبراطور" من Emperor في اللاتينية وغيرها.

الألفاظ التجارية الدخيلة

أكثر هذه الاصطلاحات معرّبة عن الايطالية والفرنسية، لأن الايطاليين او أهل البندقية من أقدم تجار أوروبا اختلاطا بالمشاركة في القرون الأخيرة.. واليك أمثلة من الاصطلاحات الايطالية:

الألفاظ التجارية الإيطالية

معناها	لفظها الاصلى	الالفاظ التجارية الايطالية
صرف	Cambio	كمبيو
حوالة	Cambiale	كمبيالة
كشف	Fattura	فاتورة
تأمين	Sicurta	سيكورتا
شركة	Compagna	قومبانية
مستشفى	Ospitale	اسبتالية
اقامة الحجة	Proteste	بروتستو
تجارة	Borsa	بورصة
شهادة	Diploma	ديبلوما
.....	Agio	اجيو

الألفاظ التجارية الفرنسية

الالفاظ التجارية الفرنسية	لفظها الاصلي	معناها
بنك	Banc	مقعد ثم المصرف
قومسيون	Commission	لجنة
كوبون	Coupon	لقطع

الفاظ تجارية من لغات اخرى

وهناك ألفاظ أخرى متفرقة من لغات أخرى: كالكمرك مثلا، فإنه تعريب "كومركي" باليونانية/ وكذلك "ناولون" .. و"شك" مأخوذة من "صك" الفارسية او أصلها صك بالعربية، و"طاقم" بالتركية، و"دروباك" في الانجليزية، وقس على ذلك.

ومثل هذا كثير في اصطلاحات نظارات الحكومة ومصالحها، وخاصة في السكة الحديدية، والتلغراف، والحربية.. واصطلاحات التجار، وأصحاب الحوانيت، والصناع، وغيرهم.. وهي تعد بالأمثا.. وقد أغفلناها لشهرتها، ولأن الكتاب يعدونها من قبيل الألفاظ العامية، فلا دخل لها في بحثنا.

الألفاظ العلمية الدخيلة

الالفاظ العلمية التي دخلت اللغة العربية في هذه النهضة كثيرة جدا، ومعظمها مقتبس من الفرنسية، والاطالية، والانجليزية، لان أكثر العلوم المترجمة الى لساننا منقولة عنها.. على ان المصطلحات العلمية متشابهة في لغات الافرنج، لأن مصدرها عندهم اما اللاتينية، او اليونانية. فلا غرو اذا أخذناها بلفظها كما أخذها الانجليز او الفرنسيون او غيرهم، وعددناها من قبيل الالفاظ الوضعية بلفظها ومعناها. ويدخل في ذلك أسماء العلوم الجديدة: كالجيولوجيا، والهيستولوجيا، والهدروستاتيك، والميكانيكات، وغيرها. ويدخل في ذلك ايضا أسماء الآلات الطبيعية او الفلكية او الكهربائية او نحوها.. مما لم يكن له مثيل عند العرب، وسيأتي ذكرها.

فالالفاظ الطبية الدخيلة كثيرة، وفي جملتها أسماء كثير من الامراض او العقاقير والادوات، وأكثره لم يكن له مثيل في الطب العربي، كالدسبسيا، والبانكرياس، والنفر الجيا، والبلورا، والسباتوي، والبلهارسيا، والدفتيريا، والهستيريا، والانيميا، والبروتوبلاسم، ونحوها. ومن المصطلحات الكيميائية غير أسماء العقاقير الكثيرة ما يحدث من تراكيبيها، كالأسيد، والكلوريد، واليودور، والكربونات، والفوسفا، والاكسسوموس، والاندسموس، والكربونيك، والهدروكلوريك، والهدروستاتيك، والفوتوغراف، والزنكوغراف، وغيرها من الاسماء الصناعية المبنية على الكيمياء.

ومن المصطلحات الطبيعية، البارومتر، والكهربائية (كهرباء لفظ فارسي مركب من "كاه" (التبن) و"ربا" (جاذب))، والبطارية، والكلفانومتر، والثرمومتر، والهيديرومتر، والالكتروتيب، والميكروسكوب، والتلسكوب، والسبكتروسكوب، والستيروسكوب، والتلغراف، والفونوغراف، والتليفون، والفوتوفون، والميكروفون، وغيرها.

ولو أردنا الاتيان بكل المصطلحات العلمية لما وسعها غير المجلدات، فنكتفي بما تقدّم على سبيل المثال.

التراكيب الأعجمية الدخيلة

معلوم ان اكثر المصادر التي يرجع اليها كُتّاب اللغة العربية في العلم الطبيعي وفروعه مكتوبة باللغات الافرنجية، واكثر الكُتّاب عندنا يحسنون لسانا او غير لسان من اللغات الاعجمية، واكثر ما يقرأونه من الكتب او الجرائد في اللغات الافرنجية.. فضلا عن شيوع تلك اللغات بين العامة، فحيث سار الكاتب في المدن الكبرى فانه يسمع العبارات الافرنجية. فلا غرو اذا داخل عبارته تركيب افرنجي او تعبير افرنجي. ولا يخفى ان لكل لغة اسلوبا في التعبير لا ينطبق بكل تفاصيله على اساليب اللغات الاخرى. واللغات تتقارب وتتباعد في تلك الاساليب بتقارب اصول الشعوب وتباعدها، والعرب بعيدون في اصولهم عن الافرنج.. فأساليب التعبير في لغاتهم متباعدة متباينة، والغالبا ان تمتاز كل لغة ببعض اساليبها على اللغات الاخرى وتقصر في البعض الآخر.. يعلم ذلك الذين يعانون الترجمة من لسان الى لسان، فاقتراس العرب بعض اساليب الافرنج في كتاباتهم قد يكون من جملة مكملاتها، واذا عدّه بعض اللغويين فسادا في اللغة، فلأن بعض كتابنا يبالغون في ذلك الاقتباس.. فيتناولون عبارات افرنجية، في اللغة العربية ما هو أجمل منها وأمتن..ومن امثلة ما حدث في اللغة العربية من التراكيب الافرنجية، وقد جرت على اقلام كثيرين قولهم:

- فلان كلاهوتي يقدر ان يؤثّر كثيرا .
- رأيت صديقي فلان الذي أعطاني الكتاب (أي فأعطاني).
- رغما عن مساعيه الحميدة لم ينجح في عمله .
- مستمدا العناية من الله أقف بينكم خطيبا .
- لعب فلان دورا مهما في هذه المسألة .
- المعاهدة المصادق عليها من الدولة الفلانية .
- ان الامر الفلاني مضرّ بقدر وشرف ومالية فلان .
- يوجد في بلاد الحجاز عدة جبال .

ونحو ذلك من التراكيب التي ترى الصيغة الافرنجية ظاهرة فيها.. على ان اهل العناية في الانشاء العربي قلما يستخدمونها، وان كنا لا نرى بأسا من استخدام بعضها في الاحوال التي تضيق التركيب العربية فيها.

المولد

ونريد بالمولد الالفاظ المستحدثة بعد عصر الاحتجاج،وهي كثيرة نذكر منها:

الألفاظ الادارية المولدة

وهي ما استخدمته الحكومة من الالفاظ العربية لمعان حدثت في الدولة او تنوّعت على مقتضى السياسة او الادارة، وهناك أمثلة منها:

المالية	أموال غير	مقررة الايرادات	مكافأة
الداخلية	المأمور	التكليف	قلم تحريرات
الخارجية	رئيس قلم	محافظة	تشريفاتي
الاشغال العمومية	مفتش	مركز	خدمة سائرة
المعية	معاون	عوائد	تعويضات
الخاصة	متصرف	رسوم	معاشات
الدائرة السنوية	مصلحة	مصاريف نثرية	مصلحة الري والترع
المدير	نظارة	مساحة التوالف	شورى القوانين
الناظر	ميزانية	علاوة	معاون أول
كاتب أول وثاني..الخ	السخرة	ملاحظ	النيابة
قواص	مستشار	رتبة أولى..الخ	ناظر النفوس
مراقب	مساعد	متمايز	قضاء
أموال مقررة	مستخدم	تذكرة مرور	ناحية

الاصطلاحات الجندية ومنها

المشير	أركان حرب	بدل سكن	النسافة
الفريق	تجهيزات حربية	الاستعراض	الطرادة
اللواء	ضابط	الحربية	الغواصة
قائم مقام	نفر	المهمات	الدرّاعة
خفر السواحل	تعيينات	الهدنة	البارجة
القرعة العسكرية	كساوي بدل سفرية	البلاغ النهائي	غرامة الحرب

الاصطلاحات القضائية ومنها

الحقانية	محكمة الجراء	النيابة	مدعي عمومي
العدلية	المجالس الأهلية	النقض والابرام	مميز
محضر	المجالس المختلطة	معارضة	
المحكمة الابتدائية	مجالس الاستئناف	الحكم العرفي	

اصطلاحات سياسية

مؤتمر	السفارة	المحافظون	مجلس الأعيان
معتمد	الاستعمار	الأحرار	مجلس العموم
مندوب	الاحتلال	الاشتراكيون	المسئولية
السياسة	الدوائر السياسية	مجلس الشيوخ	

اصطلاحات الصحافة

الصحافة	مراسل	بدل الاشتراك	الاعلانات
جريدة	مكاتب	المطبوعات الدورية	المنشورات
مجلة	محرر	وغير الدورية	الوصل

الثقل النوعي	السمعيات	التبلور	القوة
الزخم	الحلّ الكهربائي	جاذبية الالتصاق	السديم
التباعد عن المركز	التمغنط	الملاصقة والشعرية	العدسة البلورية
الجاذبية	انكسار النور	التداخل	البؤرة
السطح المائل	تشرف النور	السرعة	شفاف
المفرغة	استقطاب النور	تكهرب	مظلم
القابلة	الموشور	المادة	منير

اصطلاحات في الكيمياء

حامض	كثافة	منقوع	متعادل
قاعدة	مرونة	صبغة	لفائف الحدة
تحليل	غاز	الجرم	السمات
الطيف الشمسي	جامد	الالفة الكيماوية	العبارات
عنصر	سائل	قلوي	يستحضر
الوزن الجوهري	محلول	حامض	يحضّر
أملاح	تحليل	كاشف	الجوهر الفرد
تركيب	البلبوس	الدقيقة	الذرة

اصطلاحات طبية

حويصلة	صمامات القلب	الزهري	انسكاب
غشاء مخاطي	اللين	الصفير	تصلب
الخلايا الهوائية	تمدد	الطنين	التشخيص
الاختلاطات	تدرن	الأعراض	حوول

اصطلاحات صناعية

قطار	حروف	الباخرة	المحامي
قاطرة	أمهات	الرفاص	الطباعة
مطبعة	المعامل	السكة الحديدية	

اصطلاحات تجارية

الرهنونات	الشك المسطر	الفائدة	مسك الدفاتر
عمولة	الاستاذ	حساب النمرة	الزنجير
المقاول	اليومية	حساب جاري	الجرد
الرسمية	الخرطوش	العينات	سدد الحساب
الميري	الصندوق	المضاربة	الاستهلاك
أسهم الشركات	القسيمة	صرر النقود	مساهمة
القراطيس	الامضاء	التحصيل	المتسبب
استحقاق	الذممات	الطرود	الأطيان
التحويل	الشركات	التصدير	
المشاركة	فتح اعتماد	الاعتماد	التصفية
عميل	دين ممتاز	المصاريف الهالكة	المزايدة
العمولة	الاقتصاد	المال الاحتياطي	المناقصة
تحويل	الرهنونات	الساحب	التسجيل
تسليف نقود	الممارسة	المسحوب عليه	ميعاد
سحب (السندات)	المحصول	حامل السند	استحقاق

هذه أمثلة من الالفاظ المولدة في النهضة الاخيرة في الادارة والسياسة والتجارة، والعلم، والصناعة. وهي كما تراها عربية الاصل والاشتقاق، وأكثرها كان معروفا في اللغة ومدونا في المعجمات من قبل لِمعان قريية، مما استعملها له المولّدون او شبيهة بها على نحو ما حصل في العصر العباسي.. ولكل من هذه الالفاظ تاريخ يدل على ما تقلّبت فيه من الدلالات المتقاربة من زمن الجاهلية، فالعصر الاسلامي، فعصر التدهور الى هذا العصر.

ولا ننكر ان بعض هذه المولّدات كان في الامكان الاستغناء عن توليدها باستعمال ألفاظ كانت اللغة قبل هذه النهضة، ولها نفس الدلالة المطلوبة، ولكن قضت الاحوال بالتجديد المستمر.. وهو من نوااميس الحياة.

وأكثر التوليد المذكور حدث تدريجا واعتباطا لأسباب متفرقة ومختلفة، لا يمكن تعيينها او حصرها.. على أن بعضها وُضع عن رويّة وقصد وهو قليل. واما الاغلب في هذا التوليد ان يدخل اللغة تدريجا مثل تدرّج العادات والآداب في تولّدها ودخولها في جسم الأمة. ومن أوضح الامثلة على ما تنقلب فيه الالفاظ من المعاني او تدرّج في ابداله، ما اصاب نعوت التفخيم من التغيير العجيب بانتقالها من عصر الى عصر.. فالاديب، والألمعي، والفاضل، والعلامة، والفهامة، وحضرة وجناب، يستخدمها الكتاب اليوم لغير ما كان يستخدمها الأقدمون.. وقد يكون الفرق بعيدا بين المعنيين. فالاديب مث لا مشتقة من الادب، وهو يشمل معظم ضروب العلم.. وقد استعملها المولّدون في العصور الاسلامية الوسطى لما نستعمل له اليوم لفظ العالم الفاضل، وما زالت دلالتها تتصاغر حتى صاروا يستخدمونها لاصغر خدمة الادب. والحضرة، والجناب كانتا من نعوت الملوك والامراء، فأصبحتا تستخدمان لأحقر العامة. وقس على ذلك سائر الألقاب.. وشأن هذه النعوت في حياتها شأن الرتب وأدوارها، فلفظ "بيك" مثلا معناه الامير، او الملك.. وكانوا يسمّون به كبار الامراء والقواد، ثم جعلوه لقباً ملكياً يمنح لبعض الوجهاء ونحوهم ممن يأتون عملا عظيما، ثم صار الى ما تعلم. ويقال نحو ذلك في سائر الرتب والنعوت، فهي في صعود وهبوط وتولّد ودثور في دلالتها، شأن الطبيعة في كل أحوالها.

لغة الحكومة المصرية في دواوينها

لا غرو اذا أفردنا للغة الحكومة المصرية بابا خاصا لاختصاصها بألفاظ وتعبيرات لا مثيل لها في اللغة العربية، وفيها ما لا يمكن تطبيقه على قاعدة، ولا الرجوع به الى قياس.. ففي مخاطبات الدواوين وصور الاوامر العالية من الالفاظ الغريبة، والتراكيب الركيكة ما هو غريب في بابها، وقد بلغ ذروة الغرابة في أواسط القرن الماضي قبل نضج هذه النهضة.

واصل الركاكة والغرابة في لغة الدواوين، يرجع الى عصر التدهور في زمن الامراء والمماليك.. وطبيعي ان اللغة تحيا بحياة اهلها، وتموت بموتهم، وتزهو بزهورهم، وتنحط بانحطاطهم.. ففي عصر أولئك الامراء، بلغت مصر من التدهور في السياسة والادارة والآداب والعلوم ما لم يبق بعده غاية.. فلم ينقض القرن الثامن عشر حتى صارت لغة الكتابة أشبه شيء بلغة العامة لركاكة عبارتها مع ما فيها من الالفاظ الاعجمية، والعامية.

فدخل الفرنسيون مصر في أواخر القرن المذكور، ولغة العلماء تكاد تكون عامية، واليك أمثلة من كتاب نشره علماء مصر ومشايخها أثناء احتلال الفرنسيين، قالوا:

"نعرف اهل مصر من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية والعسكر الفرنسية، بعدما كانوا أصحابا وأحبابا بالسوية، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين، ونهبت بعض البيوت، ولكن حصلت أطاف الله الخفية، سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونايرته، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفعة على المسلمين، ومحبة الى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلوا كامل اهل مصر، فعليكم ان لا تحركوا الفتنة، ولا تطيعوا امر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الاشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون

العواقب.."..

وقد ذكرنا مثالا من كلام الجبرتي مؤرخ تلك الحوادث في كلامنا عن اللغة العربية في عصر التدهور.

ولما جاء الفرنسيون الى مصر، كان في جملة حملتهم جماعة من الترجمة ليتوسطوا بينهم وبين الاهالي والعلماء، ويترجموا لهم المنشورات، والمراسلات، ونحوها.. والظاهر انهم كانوا من غير أبناء اللغة العربية.. فكانوا اذا ترجموا عبارة صاغوها في قالب افرنجي، وما لم يجدوا له لفظا عربيا تركوه بلفظه الافرنجي او وضعوا له لفظا عاميا.

فلما أفضت الولاية الى محمد علي مؤسس الدولة الخديوية، وأخذ في انشاء الدواوين، لم يكن له غنى عن يترجم بين حكومته وحكومات دول أوربا، فاستخدم الترجمة وفيهم جماعة من اهل المغرب وغيرهم، واللغة لا تزال في انحطاطها وركاكتها، والذين يعرفون اساليبها ويحفظون ألفاظها قليلون جدا.. وخاصة بين الذين استخدموهم في الدواوين للكتابة او الترجمة. وقد رأيت مثالا من لغة المشايخ والعلماء، وقد قضاوا أعواما طوالا في الأزهر، وقرأوا كتب العلم والفقه.. فكيف بك بكتّاب الدواوين والترجمة.

ومما زاد اسباب الفساد في اللغة ان الحكومة بدأت في انشاء الدواوين وترتيب مصالح الحكومة والقضاء وغيرها، قبل اهتمامها بتعليم الناس وتهذيبهم وترقية أفكارهم واصلاح شأنهم.. فدخل في العصر الاول لحكومة محمد علي كثير من الالفاظ والتراكيب العامية، ثم تنوّعت وتكيّفت على اسلوب خاص وأوضاع خاصة وألفاظ خاصة.. وعرفت بلغة الدواوين.

فلما استنار الناس على أثر نشر الصحافة، ونبع الكتّاب، والمنشئون في أواخر القرن الماضي، انتظم جماعة منهم في مناصب الحكومة الكتابية، فنقحوا كثيرا من تلك الغرائب، ولا يزالون عاملين على تنقيحها.

ومع ذلك فلا يزال فيها من الالفاظ المولدة، والدخيلة، وضروب التركيب ما هو بعيد عن لغة سائر الكتّاب، حتى في معاني الالفاظ العربية المستعمل عند كليهما، وهاك أمثلة كثيرة الشبوع.

ألفاظ ديوانية	معناها	ألفاظ ديوانية	معناها
مطاعنة	شكوى	معروض	(عرضحال)
براءة الساحة	تبرير	ناحية	قرية
بالقضاء والقدر	عرضا	عزبة	نسكرة
اتضححت ادانته	ظهر ذنبه	ابعدية	مزرعة
صرف	دفع	نُزل	ادارة تقديم المؤن
عريضة	براءة	انجرارية	ادارة المراكب
طاقم	بحرية مركب	مصروفات	نفقات
مفتعل	مزور	خوجا (سفينة)	كاتب
ظهورات	موقت	تعلق فلان	خاصته
نشاوي	جديد	أفرج عنه	أطلق سراحه
اضمحل حاله	صار فقيرا	مستند	سند
مباشرة	رأسا	جبر	كسر
دولاب	خزانة	نفق	مات
استيداع	راتب يعطى بعد الرفت	مراسلة	خادم عسكري
عجوزات	متأخرات المال		
مثال	مثال	مثال	مثال

وغير ذلك كثيرا من الالفاظ العربية و غير العربية.. وقس عليه التركيب والتعبيرات مثل ادخال "لم" على فعل المضارع كقولهم: "لم اتي" بدلا من "لم يأت" وصوغ الفعل المجهول من المصدر وفعل الصيرورة على نحو ما في اللغات الافرنجية كقولهم: "صارَت كتابته" بدلا من "كُتِب".

وقد ولّدوا صيغة خاصة للفعل الماضي تركب من المصدر، ولفظ "معرفة" فيقولون: "كتب الكتاب بمعرفة فلان" بدلا من قولنا: "فلان كتب الكتاب" وربما ركبوا هذه العبارة مع التي قبلها، فقالوا: "صارَت كتابة الكتاب بمعرفة فلان" وقس على ذلك.. ناهيك بركاكة التعبير، وان لم تخالف قواعد النحو او الصرف مما يضيق عنه المقام وقد أعطينا عنه لشهرته.. على أنّ كُتَاب اللغة وعلماءها يعدّون تلك الالفاظ وأمثالها من قبيل الاصطلاحات العامية واسعمالها خطأ، وقد اخذت الحكومة في تنقيحها بالتدريج كما تقدّم.

الخلاصة

يتبيّن للقارئ مما ذكرناه عن احوال اللغة العربية فيما توالى عليها من العصور والادوار في اثناء نموّها وارتقائها من زمن الجاهلية الى هذا اليوم، انها سارت في كل ذلك سير الكائنات الحية بالذثور والتجدد المعبر عنه بالنمو الحيوي.. فقد تولّدت في العصر الاسلامي ألفاظ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهلي، وتولّدت في العصور التالية ما لم يكن فيها قبلها. وأخيرا تولّدت في نهضتها الاخيرة من الالفاظ والتراكيب ما لم يكن معهودا من قبل.. فالوقوف في سبيل هذا النمو مخالف للنواميس الطبيعية، فضلا عن انه لا يجدي نفعا.. فاللغة كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء ولا بد من توالي الذثور والتولد فيها.. اراد أصحابها ذلك او لم يريدوا. تتولّد ألفاظا جديدة وتندثر الفاظ قديمة على مقتضيات الاحوال لحكمة شملت سائر الموجودات.

وقد آن لنا ان نلخص أقالما من قيود الجاهلية، ونخرجها من سجن البداوة.. والا فلا نستطيع البقاء في هذا الوسط الجديد. فلا ينبغي لنا احتقار كل لفظ لم ينطق به اهل البادية منذ بضعة عشر قرنا، لأن لغة البراري والخيام لا تصلح للتمدّن والقصور، الا اذا ألبسناها لباس المدن.. فلا بأس من استعمال الالفاظ المؤدّة التي لا يقوم مقامها لفظ جاهلي، لأن معناها لم يكن معروفا في الجاهلية، او التي كان لها لفظ وترك فاصبح غريبا مهجورا.. فاستعمال اللفظ المؤدّ خير من احياء اللفظ الميت، واستبقاء المولود الجديد أولى من احياء الميت القديم.. واذا عرض لنا تعبير اجنبي لم تستعمل العرب ما يقوم مقامه لا بأس من اقتباسه. وفي اعتقادنا ان اطلاق سراح الاقلام على هذه الصورة، يكشف لنا عن جماعة كبيرة من أرباب القرائح.. يقعدهم عن الاشتغال بالأدب خوفهم من الوقوع في خطأ لغوي او بياني يؤخّنون عليه.. وليست فيهم شجاعة ادبية تحملهم على عدم المبالاة بالنقد.. اذا كان فيما يكتبونه فائدة.. والخطأ اللغوي لا يقلل شيئا من قدر الكاتب، لأن الاحاطة بكل اوضاع اللغة وقواعدها وشورادها لا يتأتّى الا لقليلين.

على اننا لا نقول في هذا الانطلاق نحو ما يقوله الافرنج في لغاتهم، لأن شأننا في لغتنا غير شؤونهم في لغاتهم.. فلا بد لنا مع هذا الانطلاق من الرجوع الى القواعد العامة والروابط الاساسية، فلا نفسد اللغة بألفاظ العامة وتراكيبهم.. ولا نكثر من الدخيل حتى نصير لغتنا مثل اللغة التركية العثمانية التي اصبحت لكثرة ما ادخلوه فيها من الالفاظ العربية والفارسية والافرنجية، لا مثيل لها في العالم الا اللغة الهندستانية (الاوردية) التي يكتب بها الهنود جرائدهم وكتبهم.. ام اللغة العثمانية، فاذا عُدّت ألفاظها باعتبار اللغات المؤلّفة منها، كان نحو 70% من الالفاظ العربية و15% من الفارسية، و5% من اللغات الافرنجية، و10% فقط من الالفاظ التركية الاصلية، ويقال نحو ذلك في اللغة الاوردية، وفي اللغة المالطية.

اما اللغة العربية، فلا بد من المحافظة على سلامتها والاهتمام باستبقائها على بلاغتها وفصاحتها، وخاصة بعد ان اخذت تنهض الى ارقى ما بلغت اليه في ابان شبابها.. فلا يستحسن الاستكثار فيها من الدخيل والمؤدّ، وانما يؤخذ منهما بقدر الحاجة، على ان نعدّ ذلك الاقتباس نموّا وارتقاء، لا فسادا وانحطاطا.

على اننا نعدّ ما متبناه في هذا الموضوع خواطر ابديناها، وفتحنا بها باب البحث. وأما استيفاء الكلام في تاريخ اللغة وألفاظها وتراكيبها فلا يسعه الا المجلدات الضخمة.. فننقّذ الى ائمة اللغة وكتّابها، وعلمائها ان يزيدونا من هذا الموضوع خدمة لهذه النهضة..

[انتهی]